عصمة الأنبياء

تأليف

محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري ،

فخر الدين الرازي

٥٤٣هـ - ٦٠٦هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

المحتويات

تعريف بالمؤلف :

فخر الدين الرازي (*)

544 ـ 606 هـ

1150 ـ 1210 م

ـ هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الطبرستاني الرازي ، الشافعي ، المعروف بفخر الدين الرازي وبابن خطيب الريّ.

ـ مفسّر ومتكلم وفقيه وأصولي وأديب وشاعر وطبيب ، وهو أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل الشرعية والعربية والحكمية والرياضية وكان يحسن اللغة الفارسية.

ـ ولد بالريّ وإليها ينسب ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وتوفي في هراة.

(*) أنظر ترجمته في : وفيات الاعيان 1 / 474 ميزان الاعتدال 2 / 32 4 ذيل الروضتين 68 شذرات الذهب 5 / 21 لسان الميزان 4 / 426 الاعلام 6 / 313 البداية والنهاية 13 / 55 بروكلمان 1 / 166 والملحق 1 ـ 620 طبقات الشافعية 5 / 33.

ـ كان ذا ثـروة ومماليك واحـترام لـدى الملـوك. سـار إلى شـهاب الـدين الغـوري ، سـلطان غزنة ، فبـالغ في إكرامه وحصلت له منه أمـوال طائلة ، واتصل بالسـلطان علاء الدين خوارزم فحظي لديه.

ـ صنّف عشرات الكتب في جميع علوم عصره ، وذكر ابن كثير :

أنه كتب مـائتي مصـنّف. وأقبل النـاس على كتبه في حياته يتدارسونها ، حـتى يقـال بحق أنه : إمـام المتكلمين ونابغة المتأخرين ، رحمه اللّه تعالى.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه رب العــالمين ، يخلق ما يشــاء ويختــار ما كـان لهم الخـيرة ، سـبحان اللّه وتعـالى عما يشـركون ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، أحسن كل شيء خلقه ، وبـدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سـلالة من مـاء مهين ، ثم ســواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم الســمع والأبصار والافئدة قليلا ما تشكرون.

(وأشهد) أن لا إله إلا اللّه وحـده لا شـريك له أرحم الراحمين وأسرع الحاسبين وأحكم الحـاكمين. وأشـهد أن سيدنا محمدا عبـده ورسـوله وصـفيه وخليلـه. وخيرته من خلقه والسـفير بينه وبين عبـاده. أرسـله بالهـدى والرحمة بشـيرا ونـذيرا وداعيا إلى اللّه بإذنه وسـراجا منـيرا. اللهم صل وســلّم وبـــارك عليه وعلى آله وصـــحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد) فإن اللّه سـبحانه وتعـالى أكـرم الإنسـان وتفضل عليه بنعم لا يحصــيها العد ولا يقف بها الحســاب عند حد. (**وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اَللّـهِ لاٰ تُحْصُـوهٰا إِنَّ اَللّٰـهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) [1] سواه فعدله ، في أحسن

---

1 ـ سورة النحل ، الآية 18.

صـــورة ما شـــاء ركبه ، وزاد في كرامته أن نفخ فيه من روحه ، ووهبه الإنسـانية العاقلة المفكـرة الممـيزة الـتي مـــيزه بها على كل ما خلق ، وذلك لأنه أعـــده لأســـمى الوظـائف وخلقه لأشـرف الأعمـال : أن يتلقى العهد عن ربه فيعبـده ويعـرف نعم اللّه عليه فيقـدرها ويشـكرها ، ويثـني على اللّه الثنـاء الـذي يحبه ويشـغل قلبه ولسـانه وجوارحه بـذكر اللّه وشـكره رجـاء أو خوفا ورغبة ورهبة وذلا وخضوعا.

ولقد امتحن اللّه تعالى الإنسان في هذه الحياة الـدنيا بأنواع الفتن : من مال وبنين ، ونساء ، وأخوان وأصدقاء ، ورياسات وسعى في سبل العيش وتحصيل أسباب الحيـاة ، مما كـان للّه عند أكـثر النـاس أعظم الأثر في صـرف قلـــوبهم عن وظيفة العبودية وواجب الإلهية ، ولم يكن له عند خيار خلقه وصفوتهم إلا منزلة الضرورة يأخـذون منها حاجتهم غير متجـانفين ولا معتـدين ثم رغد عيشـهم ولـذة قلـوبهم وراحة أرواحهم في ذكر اللّه والثنـاء عليه بما هو أهلـه. وإنما كـان ذلك الافتتـان بتلك الشـواغل ، وهـذه الفـواتن ليعلم اللّه الـذين صـدقوا وليعلم الكـاذبين ، فقد جرت سـنة اللّه الـتي لا تبـدل أنه ما من لـذة أتم ولا نعيم أوفر مما يكـون ثمـرة لجهـاد وصـبر ، وركـوب المشـاق والصعاب ، وإعمال مطايا النفس في السعي الحـثيث إلى ما تحبه من تلك اللذائذ وهــــذا النعيم. وأن العبد لا يظفر في ميـــدان الجهـــاد ببغيته ، ويحظى بغنيمته إلا إذا كــان كامل العـدة موفـور القـوة ، قد اتخذ للنصر أسـبابه وتهيأ للغنيمة بآلات النجاح والسداد ، وما عدة المجاهد في هـذا الميدان وسـلاحه وذخيرته إلا الإيمـان باللّه وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر ، وتوثيق الصـلة الروحية بين العبد وبين ربه خالقه وبارئه وفـاطره ، بـإخلاص العبـادة والـذل والمحبة والطاعة والإسـلام له وحـده لا شـريك لـه. فـإن العـــدو الـــذي انتصب في الميـــدان خصـــما قد أعلن عن خصومته وعداوته وحربه وسلاحه ، إذ قال (**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ**

وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذٰانَ اَلْأَنْعٰامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْــقَ اَللّــهِ) [1] وصـــفه اللّه بأنه (**يَعِــدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمٰا يَعِـدُهُمُ اَلشَّـيْطٰانُ إِلاّٰ غُـرُوراً**) [2] وقـال عنه (**لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِـرٰاطَكَ اَلْمُسْـتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْـــدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمٰـــانِهِمْ وَعَنْ شَـمٰائِلِهِمْ وَلاٰ تَجِـدُ أَكْثَـرَهُمْ شٰـاكِرِينَ**) [3] وكل ذلك لا سبيل للإنسان إلى معرفته من قبل نفسه ، ولا وصـول له إليه بعقله مســتقلا فإنها أمـــور خارجة عن حسه ، وعالية عن متنــاول تفكــيره وذهنــه. وجمــاع ما يكيد به العــدو للإنســــــان ويجلب عليه به بخيله ورجله : الشـــــبهات والشهوات يقذف بها على القلوب والنفوس ، ويوالي ذلك متابعا حــتى يصــيب القلــوب بــالأمراض الفتاكة والعلل القتالة ، فتعــرض عن ربها وفاطرها وبارئها وتشــتغل عنه بتلك العلل والأمــراض ، والعــدو الألد يلبس عليها الأمر ، ويزين لها بزخرف القول وغروره ، ويعدها ويمنيها ويقسم إنه لمن الناصحين ، وما يـزال كـذلك جاهـدا حـتى ينسـيها ربها مـــرة بانشـــغالها بالآلهة الأخــــرى من دونه أو بما انغمست فيه من شــهوات أطغت الحيوانية حــتى زعمت خاطئة فــاجرة أن لا بعث ولا نشــور (**إِنْ هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا اَلدُّنْيٰا وَمٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) [4].

(ووقاية القلوب) من تلك الأمراض ، وطبها من هذه العلل إنما هو بيد الرسل صـــلوات اللّه عليهم فلا ســـبيل إلى حصول السلامة والعافية إلا من جهتهم وعلى أيديهم ، فإن صلاح القلوب هو بأن تكون عارفة

---

1 ـ سورة النساء ، الآية 119.
2 ـ سورة النساء ، الآية 120.
3 ـ سورة الاعراف ، الآية 17.
4 ـ سورة الانعام ، الآية 29.

بربها وفاطرها بأسـمائه وصـفاته وأفعاله ، وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولمحابه مجتنبة لمناهيه ومسـاخطه ، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقي هـذا ومعرفته إلا من جهة الرسل المبلغين عن اللّـه. وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم فغلط فـاحش وضـلال مـبين ممن يظن ذلك ، وأن ما يحس من نشـاط وقـوة ، فـذلك حيـاة نفسه البهيمية الشـهوانية وصـحتها وقوتها وأما حيـاة قلبه وصـحته وقوته فعن ذلك بمعـزل. ومن لم يميز بين هذا وهذا فليبك على حياة قلبه فإنه من الأموات ، وعلى نوره فإنه منغمس في بحار الظلمات.

ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضـرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر فإنه لا سـبيل إلى السـعادة والفلاح لا في الـدنيا ولا في الآخـرة إلا على أيـدي الرسل ، ولا سـبيل إلى معرفة الطيب والخـبيث على التفصـيل إلا من جهتهم ولا ينال رضا اللّه البتة إلا على أيديهم ، فهم المـيزان الـراجح الـذي على أقـوالهم وأعمـالهم وأخلاقهم تـوزن الأقـوال والأعمال والأخلاق ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهـدى من أهل الضـلال ، فالضـرورة إليهم أعظم من ضـرورة البـدن إلى روحه والعين إلى نورها ، والـروح إلى حياتها ، فـأي حاجة وضـرورة فرضـت؟ فضـرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثـير ، وما ظنك بمن إذا غـاب عنك هديه وما جـاء به طرفة عين فسد قلبك وحل به من الآلام والعـذاب ما يكون به مثل الحوت إذا فارق المـاء ووضع في الفلا. وإذا كـان هـذا عمل الأنبيـاء عليهم من اللّه أفضل الصـلاة والسـلام ـــ وتلك وظيفتهم فإنه لا يتم الغـرض منها ولا تتحقق على تمـام وجهها إلا إذا كـانوا من الكمـال وعلو المنزلة وسـمو المقـام في نفـوس النـاس بالدرجة الـتي تجعلهم

أهلا لأن يقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم ، ويلتزم ما يبلغون عن اللّه تعالى من الشرائع والآداب والأحكام.

ثم هم فوق هذه الإمامة ، وأكثر من هذه القدوة التي يلزم لها ذلك الكمال وعلو المنزلة ـ أشد الخلق صلة باللّه تعالى ، وأقربهم إليه ـ بما نالوا من شرف تكليمه سبحانه وتعالى لهم وتنزيل وحيه عليهم ، واختصاصهم بأن يكونوا سفراءه إلى خلقه ، وحملة الأمانة العظمى إلى عباده ، والمبلغين عنه سبحانه المراسيم الإلهية والأوامر الكريمة ، والهدى والرحمة ، (**اَللّهُ يَصْطَفِي مِنَ اَلْمَلاٰئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ اَلنّٰاسِ**) [1] فلا غرو إن كانوا من أجل هذا ، ومن أجل غيره أكثر مما ذكرنا ـــ صفوة خلق اللّه ، وخلاصة عباده الذين اجتباهم وهداهم إلى صراطه المستقيم (**أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ هَدَى اَللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اِقْتَدِهْ قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْعٰالَمِينَ**) [2] (**أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلنَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرٰاهِيمَ وَإِسْرٰائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنٰا وَاِجْتَبَيْنٰا إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُ اَلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا**) [3] وإنه لتتجلى رحمة اللّه تعالى في أجلى مظاهرها وتبدو واضحة في أسمى معانيها في إرسال اولئك المصطفين الخيرة هداة مرشدين ، ونصحاء مبلغين ، ورحماء واعظين (**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اَللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ اَلرُّسُلِ وَكٰانَ اَللّٰهُ**

---

1 ـ سورة الحج ، الآية 75.
2 ـ سورة الانعام ، الآية 90.
3 ـ سورة مريم ، الآية 58.

عَزِيـزاً حَكِيمـاً) [1] (**وَجَعَلْنٰـاهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنٰا وَأَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْـلَ اَلْخَيْـرٰاتِ وَإِقٰـامَ اَلصَّـلاٰةِ وَإِيتٰـاءَ اَلزَّكٰاةِ وَكٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ**) [2].

وجل اللّه وتعـــــالى أن يضع تلك الإمامة في غـــــير موضـعها ، وأن يلقي بأعبـاء تلك الأمانة العظمى على من لا يليق لها ، وأن يجعل حجته البالغة إلا فيمن يكــون أولى بها فإنه العليم الخبـــير ، العزيز الحكيم ، ولقد زعم عمى القلوب والبصائر وزعم لهم شيطانهم أنهم صالحون لهـذه الرسـالة فـأبوا أن يتبعـوا رسل اللّه حـتى يكـون لهم من الوحي مثل ما يتنزل عليهم فرد اللّه العليم الحكيم عليهم : إن الأمر ليس هملا ، وأن حكمة اللّه أجل أن تضع الأمر إلا حيث يكـون أوجب وأولى. وقـال (**وَإِذٰا جٰـاءَتْهُمْ آيَـةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اَللّٰـهِ ، اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ سَيُصِيبُ اَلَّذِينَ أَجْرَمُـوا صَغٰارٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَعَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ**) [3] (**وَقٰـالُوا لَـوْ لاٰ نُـزِّلَ هٰـذَا اَلْقُـرْآنُ عَلىٰ رَجُـلٍ مِنَ اَلْقَـرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَـمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي اَلْحَيٰـاةِ اَلـدُّنْيٰا وَرَفَعْنٰا بَعْضَـهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ**) [4].

وأن مما لا يشك فيه عاقل أن اللّه العليم الخبـــــير محال أن يتخذ رسولا رجلا تزدريه الأعين وتحقره القلـوب ، سلط بوهن أخلاقه ، وحقارة نفسه ، وصغر همته ألسـنة النـاس عليه بـالطعن والإزراء. فكيف يسـتطيع مثل هـذا المهان المرذول أن يكون قدوة في مكارم الأخلاق وأما

1 ـ سورة النساء ، الآية 165.
2 ـ سورة الأنبياء ، الآية 73.
3 ـ سورة الانعام ، الآية 124.
4 ـ سورة الزخرف ، الآية 31 ـ 32.

وإماما يهـدي النـاس إلى صـراط ربهم العزيز الحميـد؟ أو رجلا متهما في نسبه أو ناقصا مشـوها في خلقه وجسـمه يجعل منه داعيا إليه بإذنه ، والـدعوة تسـتلزم أن يكـون للـداعي من المهابة في النفـوس والإجلال في القلـوب والمنزلة الكريمة عند النـاس وظهـور الكمـال الخلقي والخلقي حـتى تخضع لها الفطر السـليمة والقلـوب المستقيمة.

ومن أجل هـذا بعث اللّه أنبيـاءه من أوسط قـومهم نسبا وبـرّأهم من العيـوب الجسـيمة المشـوهة وأعطـاهم أكمل صفات الرجولة من الشجاعة وصدق العزيمة وقـوة الإرادة وشدة البـأس وسـعة الصـدر وحـدة الـذهن وذكـاء القلب وطلاقة اللسان وحلاوة المنطق ، وما إلى ذلك مما يكـون به المختـار لرسـالة ربه أكمل الرجـال في قومه وقبيلته وأملأهم للأسماع والأبصـار. وفي قـول اللّه تعـالى لصفوة خلقه محمد صلّى اللّه عليه وسـلّم (وَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [1] ولموسى عليه السلام (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْـنَعَ عَلىٰ عَيْنِي) [2] وقوله : (**وَاصْـطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) [3] ما يوضح بأتم أنواع الإيضـاح عن شـدة عناية اللّه تعالى بمن سبق في علمه أن سـيتخذه رسـولا لخلقه وسـفيرا بينه وبين عبـاده وليس ذلك ــ لعمر اللّه ــ خاصا بمحمد صـلّى اللّه عليه وسـلّم ولا بموسى لشخصـهما الكـريمين وإنما هو لكل واحد من أنبيائه ، إذا رجعت إلى القرآن الكريم رأيت هـذا في قصص الأنبيـاء بينا واضـحا (**إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ**) [4] (**قـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ اَللّٰـهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَمٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نَـأْتِيَكُمْ بِسُـلْطانٍ إِلاَّ بِـإِذْنِ اَللّٰهِ**) [5].

1 ـ سورة الطور ، الآية 48.
2 ـ سورة طه ، الآية 39.
3 ـ سورة طه ، الآية 41.
4 ـ من سورة الشعراء.
5 ـ سورة ابراهيم ، الآية 11.

وعلى الأخص من هـــذا صـــفوة الأنبيـــاء وأفضل المرسلين سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم الذي نشـئه اللّه أطيب نشأة وأزكاها وأطهرها وأبرأها وأبعـدها من كل نقيصة أو دنية حتى كان زينة المجالس في قومه ، ومرجع الأحكام وموئل الكـرم ومثـال عـزة النفس ، فكـان موضع سرهم ، وحلال مشكلاتهم وحرز أماناتهم ، فما كان يدعي بينهم إلا بـالأمين عليه الصـلاة والسـلام وحـتى قـالت له السـيدة خديجة حين جـاءه الـوحي أول مـرة وخـاف على نفسه أن يعجز عن هـــذه الوظيفة : « إن اللّه لا يخزيك أبـدا إنك لتحمل الكـلّ وتقـري الضـيف وتكسب المعـدوم وتعين على نوائب الحق » [1].

وقال الإمام النووي في شرح مسـلم في الكلام على حديث ضرب موسى للحجر حين عدا بثوبه ، فخـرج يعـدو وراءه عريانا ، ويقول : ثوبي حجر ، وطفق ضـربا بـالحجر يراه بنو إسرائيل فيتبين كذب افترائهم عليه إنه آدر ، قال النووي : ومن فوائد هـذا الحـديث ما قاله القاضي عيـاض وغـيره : إن الأنبيـاء صـلوات اللّه وسـلامه عليهم أجمعين مـنزهون عن النقـائص في الخلق والخلق ، سـالمون من العاهات والمعايب ، قـالوا : ولا التفـات إلى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التـاريخ في إضـافة بعض العاهـات إلى بعضـهم بل نـزههم اللّه من كل عيب وكل شـيء يبغض العيون أو ينفر القلوب ا هـ.

هـذا ، وإن السـبيل السـوي والطريق الأقـوم إلى معرفة أولئك الصـفوة من خلق اللّه ، الـذي سـبقت لهم من اللّه الحسنى ، وسـبقت لهم على أهل الأرض الأيـادي البيضـاء إنما هو كلام مصـطفيهم ومختـارهم ومجتبـاهم وباعثهم إلى الناس مبشـرين ومنـذرين ، وهـداة مهتـدين. ولقد قص اللّه

---

1 ـ رواه البخاري مع اختلاف في اللفظ.

في كتابه الكـريم المـنزل على خـاتمهم وإمـامهم محمد صـلّى اللّه عليه وسـلّم من نبأ أولئك الأنبيـاء ما أبـان عن جليل قدرهم وسامي مكانتهم وشريف مواقفهم في الذب عن دين اللّه الحق ، والصبر على ما لقـوا من قـومهم من أذى لا يصــــــبر عليه ولا يطيقه إلا اولئك المرســــــلون الصادقون ، فحلـوا من نفس رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلّم ونفـوس أصـحابه وأتبـاعهم أكـرم منزلة وأسـمى مكانة وكانت لهم بهم أحسن قـدوة. وذلك هو الـذي قصد اللّه تعالى إليه وأراده من هذه القصص ، وما زاد الرسول صلّى اللّه عليه وسـلّم ولا أصـحابه عن هـذا القـدر الطيب النافع ، وما سـمعنا عن أحد منهم أنه نـاقش النـبي صـلّى اللّه عليه وســـلّم في كيف أكل آدم من الشـــجرة وكيف عصى ربــه؟ وهـذا القصص الـذي هو أصــرح شــيء في وصف المعصــية ، ولا ناقشــوا الرســول صــلّى اللّه عليه وسلّم في غير آدم من الأنبياء على هذا المنحى الذي نحاه المتأخرون ، ولا واللّه ما كـان أولئك الصـحابة أقل معرفة لمكانة الأنبيـــاء من أولئك المتـــأخرين ، ولا أقل احتراما وإجلالا لشـــــأنهم من أولئك المتكلفين ما لا يعـــــــنيهم والـــداخلين فيما ليس من شـــئونهم. وإنما هي القلـــوب السليمة ، والقلوب السقيمة.

فأما الصـحابة فكـانت قلـوبهم على فطرتها السـليمة بعيدة من شـكوك الشـياطين وشـبهاتهم فـنزل عليها كلام اللّه بردا وسـلاما وسـالت أوديتها بقـدرها فاحتمل السـيل زبدا رابيا ، بقيت القلوب مفعمة بـذلك العلم الصـافي من أقـــوال الخلق وأهـــوائهم وكـــانوا كلما تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا على إيمانهم وهداية على هدايتهم ونورا على نـــورهم (**أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُــوبِهِمُ ٱلْإِيمٰــانَ وَأَيَّدَهُمْ بِــرُوحٍ مِنْــهُ**) [1] (**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمٰــانَ وَزَيَّنَــهُ فِي قُلُــوبِكُمْ وَكَــرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْــرَ وَٱلْفُسُــوقَ وَٱلْعِصْــيٰانَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلرّٰشِدُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللّٰهِ وَنِعْمَةً**) [2].

---

1 ـ سورة المجادلة ، الآية 22.
2 ـ سورة الحجرات ، الآية 7 ـ 8.

وأما القلوب السقيمة فهي قلوب المتأخرين الذين فتح عليهم الشيطان بابا واسعا من فنون الجدل وكثرة القيل والقال والمماحكات اللفظية وأقوال أهل الكتاب من اليهود أشد الناس كراهية للأنبياء وتحقيرا لهم ومشاقة لهم وكفرا بهم وتقتيلا (**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**) [1] (**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**) [2] ومن النصارى الضلال الذين غلوا في دينهم غير الحق بجهلهم وعمى بصائرهم حتى اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون اللّه واتخذوا غيرهما كذلك من قساوستهم ورهبانهم. ومن فلسفة أرسطو وإخوانه الذين كانوا يعبدون الأصنام ويكفرون باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وزعم لهم شياطين الجن والأنس أن هذه الفلسفة هي ميزان العقل الذي لا يميل وأن قضاياها المنطقية مسلمات وأن الواجب عرض ما جاءت به الأنبياء على هذه القضايا فما وافقها فهو المقبول وما خالفها لا تعبأوا به شيئا واطلبوا له وجوه الرد بكل ما تقدرون من تحريف وتأويل ودعوى أنه ظني وأنه خبر آحاد وغير ذلك من كل ما يعزله عن وظيفته ويطمس نور حقيقته.

فلما فتح الشيطان هذا الباب ، وأسقم القلوب بهذه العلل أخذ يخادع أصحابها عن أنفسهم ويوهمهم أنهم لا يزالون على الهدى المستقيم وشغلهم بالمماحكات اللفظية عن المواعظ القلبية والهدايات الروحية فجرهم ذلك كله إلى مناقشة هذا القصص القرآني مناقشات بعيدة عن الهدى والصواب وخاضوا فيما لم يخض فيه الأنبياء وأتباعهم ، بل فيما خاض فيه اليهود

1 ـ سورة آل عمران ، الآية 21 ـ 22.
2 ـ سورة آل عمران ، الآية 182.

والنصارى وإخوانهم ، وأخذوا يتخبطون في سـبيلهم تخبط الأعمى الأصم على غير هدى ولا نور.

وقد تفـــرقت الأمة على هـــذه القلـــوب والعلـــوم والفلســـفات فرقا شـــتى وطرائق قـــددا ، كل فرقة قد أخذت من مشابهة هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء من يهود ونصـارى وفروخ اليونان بحظ ونصيب قل أو كثر على قدر افتتـانهم بشبهاتهم وبعدهم عن طريق الأنبياء وهدى المرسلين وهو القرآن الـذي (**لاَ يَأْتِيهِ اَلْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ**) [1] وما صح من قــول الرسول المبلغ عن اللّه والمبين لما نــزل عليه ، وما وقى اللّه من شر هـــذه الفتنة إلا أهل الحـــديث المتبعين للأثر الـــذين جعلـــوا عقـــولهم وآراءهم تحت حكم ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم استمساكا بالعروة الـوثقى والحبل المـتين (**وَلَـوِ اِتَّبَـعَ اَلْحَـقُّ أَهْـوٰاءَهُمْ لَفَسَـدَتِ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَاَلْأَرْضُ وَمَنْ فِـيهِنَّ**) [2] « لا يـؤمن أحـدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » [3] صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم.

وإن أقـــرب فـــرق هـــذه الأمة إلى اليهـــود وأشـــدها مشـــابهة لهم في أخلاقهم وأقـــوالهم وقلـــوبهم وأعمـــالهم فرقة الـــروافض فـــإنهم زعمـــوا العصـــمة لائمتهم كعصـــمة الأنبياء أو أعظم وضلوا ، فإنما فضيلة الأنبياء وعلو قدرهم بـــأن اللّه تعـــالى وهبهم من العصـــمة والكمـــال بالرســـالة والـــوحي ما لم يشـــاركهم فيه أحد ولا يســـاويهم فيه بشر آخر ، وإلا لم يكن لهم فضل ولا مزية ، وكـــانت القـــدوة بغـــيرهم مســـاوية للقـــدوة بهم ، والأخذ عنهم كالأخذ عن غيرهم ، وتلك هي مقالة أهل الكتاب وعقيدتهم (**اِتَّخَـذُوا أَحْبٰـارَهُمْ وَرُهْبٰـانَهُمْ أَرْبٰابـاً مِنْ دُونِ اَللّٰـهِ**) [4] وكـانوا يكتبون لهم الكتاب بأيديهم

---

1 ـ سورة فصلت ، الآية 42.
2 ـ سورة المؤمنون ، الآية 71.
3 ـ قال النووي : حديث حسن صحيح.
4 ـ سورة التوبة ، الآية 31.

(**يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اَللّـهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ**) [1] والرافضة ورثوا عن اليهود عداوة الأنبياء وقالة السوء فيهم وإشـــراكهم أئمتهم في العصـــمة وادعـــاء أن كل ما قـالوه شـرع يتبع ودين يـدان اللّه تعـالى به. وجـوزوا على الأنبيـــاء المعصـــية ولم يجوزوها على ائمتهم وموهـــوا في ترويج فريتهم وباطلهم بأن الأنبياء إذا عصوا ردهم الـوحي إلى الصـواب وائمتهم لا وحي يـردهم وإنما تنطـوي هـذه المقالة الشـنيعة على تفضـيل ائمتهم على الأنبيـاء ، وذلك واضح منها جلي مهما حـاولوا إخفـاءه بالتمويـه. وقد أخذ بعض المتصوفة عن الرافضة هذه المقالة الشـنيعة وزادوا عليها بلاء ، إذ زعمـوا أن الأوليـاء أفضل من الأنبيـاء ، كما قال ذلك ابن عربي الحاتمي الطـائي [2] وغـيره في كتبهم المتداولة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة في الرد على ابن المطهر الرافضي ، قال الأشعري في المقالات : واختلف الروافض في الرسول : هل يجوز عليه أن يعصي أم لا؟ وهم فرقتـــان. فالفرقة الأولى منهم يزعمـــون أن الرسول جـائز عليه أن يعصي اللّـه. وأن النـبي صـلّى اللّه عليه وسلّم قد عصى في أخذ الفداء يوم بـــدر. فأما الأئمة فلا يجوز ذلك عليهم. فإن الرسول إذا عصى فـإن الـوحي يأتيه من قبل اللّه والأئمة لا يوحى إليهم ولا تهبط الملائكة عليهم وهم معصـــومون. فلا يجـــوز عليهم السـهـو ولا أن يغلطـوا وإن جـاز على الرسـول العصـيان. والقائل بهـذا القول هشام بن الحكم والفرقة الثانية منهم يزعمـون أنه لا يجـوز على الرسـول أن يعصي اللّه عز وجل ولا يجـوز ذلك على الأئمة لأنهم جميعا حجج اللّه وهم معصـــــومون من الزلل » ا هـ.

1 ـ سورة البقرة ، الآية 79.
2 ـ الذي تعلمه ان هـذا الامر نقل عنه ولم نر له رأيا يفيد هـذا المعـنى صراحة.

وقـــال أبو محمد بن حـــزم في الملل والنحل : رأينا المعروف بابن الطيب البـاقلاني فيما ذكر عنه صـاحبه أبو جعفر السمناني قاضي الموصل : أنه قد يكون في الناس بعد النبي من هو أفضل من النبي من حين يبعث إلى حين يموت ، فاسـتعظمنا ذلـك. وهـذا شـرك مجـرد وقـدح في النبوة لا خفاء به. وقد كنا نسـمع عن قـوم من المتصـوفة إنهم يقولــون : أن الــولي أفضل من النــبي وكنا لا نحقق هذا على أحد يدين بدين الإسلام إلى أن وجدنا هـذا الكلام كما أوردنا فنعـوذ باللّه من الارتـداد. قـال أبو محمد : ولو أن هذا الضال المضل يـدري ما معـنى لفظة إلى « أفضل » ويدري فضيلة النبوة لما انطلق لسانه بهذا الكفر. وهـذا التكذيب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذ يقول :

« إني لأتقاكم اللّه [1] ـ وإني لست كهيئتكم [2] ـ وإني لست مثلكم » فـإذ قد صح بـالنص أن في النـاس من لم يجترح السيئات ، وأن من اجترح السيئات لا يساويهم عند اللّه عز وجل فالأنبياء عليهم السلام هم أحق بهذه الدرجة وبكل فضيلة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام بقول اللّه عز وجل (**اَللّـهُ يَصْـطَفِي مِنَ اَلْمَلاٰئِكَـةِ رُسُـلاً وَمِنَ اَلنّاسِ**) فأخبر اللّه تعالى أن الرسل صــفوته من خلقه » ا هـ [3].

وقد غلا جماعة فجهلـــوا معـــنى المعصـــية وردوا الأحـاديث الصـحيحة بجهلهم وغلـوهم هـذا إذا قـالوا : إن النــبي صــلّى اللّه عليه وســلّم لا يجــوز عليه الســهو ولا النسيان ظنا منهم أن هذا السهو معصـية. وهـذا من أبطل الباطل ، وقال أبو محمد بن حزم في الملل والنحل : فإن قــال قائل : فهلا نفيتم عنهم الســهو بــدليل النــدب إلى التأسي بهم؟ قلنا وباللّه تعــالى التوفيق : إنكـــار ما ثبت كإجازة ما لم يثبت سواء ولا فرق ، والسـهو منهم قد ثبت بيقين

1 ـ قسم من حديث الرهط الثلاثة رواه البخاري ومسلم.
2 ـ قسم من حديث الوصال في الصوم رواه البخاري.
3 ـ سورة الحج ، الآية 75.

وأيضا فإن ندب اللّه تعالى لنا إلى التأسي بهم لا يمنع من وقوع السهو منهم ، لأن التأسي بالسهو لا يمكن إلا بسـهو منا ، ومن المحال أن نندب إلى السـهو أو نكلف السـهو ، لأننا لو قصدنا إليه لم يكن حينئذ سهوا.

ولا يجـوز أيضا أن ننهى عن السـهو ، لأن الانتهـاء عن السهو ليس في بنيتنا ولا في وسعنا ، وقد قـال تعـالى : (**لاٰ يُكَلِّفُ اَللّهُ نَفْسـاً إِلاّ وُسْـعَهٰا**) [1] ونقـول أيضا : إننا مأمورون إذا سـهونا أن نفعل كما فعل رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلّم إذ سـها ، وأيضا فـإن اللّه تعـالى لا يقر الأنبياء عليهم السلام على السـهو بل ينبههم في الـوقت ، ولو لم يفعل تعـالى ذلك لكـان لم يـبين لنا مـراده منا في الدين. وهذا تكذيب للّه عز وجل إذ يقـول : (**تِبْيٰانـاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ**) [2] وإذ يقـول : (**اَلْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**) [3] إلى أن قـال : وما نعلم أهل قرية أشد سـعيا في إفسـاد الإسلام وكيده من الرافضة وأهل هذه المقالة ـ يعـني ابن الباقلاني وشيعته ـ فـإن كلتا الطـائفتين الملعونـتين أجازتا تبديل الدين وتحريفه وصرحت هذه الفئة ـــ مع ما أطلقت على الأنبياء من المعاصي ـ بأن اللّه تعالى تعبـدنا في دينه بغالب ظنوننا وأنه لا حكم للّه إلا ما غلب عليه ظن المـرء منا وإن كان مختلفا متناقضا. وما نمتري في أنهم ساعون في إفسـاد أغمـار المسـلمين المحسـنين بهم الظن نعـوذ باللّه من الضلال » ا هـ.

وقـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية في منهـاج السـنة : « وأما المسائل المتقدمة فقد شرك غير الإمامية فيها بعض الطوائف إلا غلوهم في عصمة الأنبيـاء فلم يـوافقهم عليه أحد حيث ادعوا أن النبي صلّى اللّه عليه وسـلّم لا يسـهو. فإن هـذا لا أعلم أحـدا يـوافقهم عليه ، اللهم إلا أن يكـون من غلاة جهال النساك ،

---

1 ـ سورة البقرة ، الآية 286.
2 ـ سورة النحل 89.
3 ـ سورة المائدة الآية 3.

فــإن بينهم وبين الرافضة قــدرا مشــتركا في الغلو وفي الجهل والانقيـاد لما لا يعلم صـحته والطائفتـان شـبيهتان بالنصارى في ذلك. وقد تقـرب إليهم بعض المصـنفين من الغلاة في مسألة العصمة » ا هـ.

وإنا لنعلم علما ضــروريا أن أول من عــرف الأنبيــاء وســـمع أحـــاديثهم والحـــديث عنهم من هـــذه الأمة هم الصحابة رضي اللّه عنهم وبين ظهرانيهم نزل جبريل على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله تعالى : (**مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَسْـرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي اَلْأَرْضِ تُرِيـدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيٰا وَاَللّٰهُ يُرِيدُ اَلْآخِرَةَ وَاَللّٰـهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ لَـوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اَللّٰـهِ سَـبَقَ لَمَسَّـكُمْ فِيمٰا أَخَـذْتُمْ عَـذٰابٌ عَظِيمٌ**) [1] ويشهدون رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلّم حين تنزل عليه هذه الآيـات في أسـرى بـدر يبكي هو وأبو بكر ويبكي عمر لبكائهما ويـنزل جبريـل على النـبي صـلّى اللّه عليه وســلّم بقوله : (**إِنّٰا فَتَحْنٰا لَـكَ فَتْحـاً مُبِينـاً لِيَغْفِـرَ لَـكَ اَللّٰـهُ مٰا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِـكَ وَمٰا تَـأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً**) [2] ويســمعون غـير هـذا من آيـات القـرآن الكـريم من قصة زيد وزينب وأضرابها وأشباهها ويسمعون قـول النـبي صـلّى اللّه عليه وسلّم « ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » [3] وقوله : « توبوا إلى اللّه فإني أتـوب إلى اللّه في اليـوم مائة مـرة » [4] وقوله : « اللهم اغفر لي خطيئـتي وجهلي وإسـرافي في أمـري. وما أنت أعلم به مـني. اللهم اغفر لي هـزلي وجـدي وخطـئي وعمـدي وكل ذلك عنـدي » [5] إلى غير ذلك من ادعيته الكثيرة المشهورة في مثل هـذا ، يسـمع الصـحابة رضي اللّه عنهم كل هـذا ولا يـزدادون إلا حبا لهذا القائل صلّى اللّه عليه وسـلّم وتعلقا به وطاعة له ،

---

1 ـ سورة الانفال آية 67 ـ 68.
2 ـ سورة الفتح الآية 1 ـ 2.
3 ـ رواه الترمذي والدارمي والنسائي وابن حنبل.
4 ـ رواه مسلم ولفظه (.. واستغفروه فاني ..) الحديث.
5 ـ متفق عليه.

حتى ليجعلـون صـدورهم دون صـدره ، ويفدونه بأنفسـهم وكل غال ويبـذلونها في نشر دينه وملتـه؛ ويحملـون أشق الصعاب في سبيل هذا طيبة به نفوسهم ، لا يرون ذلك إلا سـعادة ونعيما حـتى علت كلمة اللّه على كل كلمة ، وأتم اللّه نوره وأتم على الإسلام نعمته.

ثم نـرى اولئك المتكلفين الـذب عن الأنبيـاء والـدفاع عن عصمتهم والمسودين الصـحف في محاولة تـنزيههم لا يذكرون شـيئا بجـانب اولئك الصـحابة ، لا في حب الأنبيـاء ولا في اتبـــاعهم ، ولا في جهـــاد اعـــدائهم ولا في بـــذل النفـوس والأمـوال في سـبيل مرضـاتهم ونصـرهم. أليس هذه من أعجب العجب؟

هذا وقد ألف الشريف المرتضى في هـذا البـاب كتابا أســـماه (تنزيه الأنبيـــاء) زعم فيه كـــذبا وبـــاطلا أن أهل الحـديث يجـوزون على الأنبيـاء الكبـيرة قبل النبـوة. ومما يدلك على كذب هذا وافترائه ما قـال الإمـام أبو محمد بن حزم من ائمة أهل الحـديث في الملل : فـبيقين نـدري أن اللّه تعالى صان أنبياءه عن أن يكونــوا لبغية من أولاد بغي أو من بغايا بل بعثهم اللّه في حسب قـــومهم فـــإذ لا شك في هذا فبيقين نـدري أن اللّه تعـالى عصـمهم قبل النبـوة من كل ما يؤذون به بعد النبـوة ا هـ ، وقد اعتمد الشـريف المرتضى في كتابه هذا على عقله في أكثر كلامه وحجابه ، حتى أنه أورد في الكلام على نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم عـــدة أحـــاديث متـــواترة اللفظ والمعـــنى ثم ردها بأدلة العقول التي لا يدخلها ـ عنـده ـــ الاحتمـال والمجـاز فكـان في أكثر ما أتى به غير موفــق. وإنه ليغلب على ظـني أنه إنما حمله على صنع كتابه هذا حرصه على عصـــمة ائمتهم ، وإنما اتخذ من ذكر الأنبياء دهليزا للدخول على مقصــده. فإنك تجده ذكر ثلاثة عشر نبيا تكلم عليهم في مائة وتسع وأربعين صفحة بها فيهم نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسـلّم وســود خمســين صــفحة في دعــوى عصــمة خمسة من ائمتهم ، حشاها

بالدعاوى الباطلة والحجج الواهية والقول الزور مما يؤمن كل الإيمــان بــأن الإمــام عليا وولديه الحســنين وذريتهم الطيبين رضي اللّه عنهم في غنى عنه وبــراء منه ومن أن يــدعي لهم مساواة النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم الـذي أكسبهم اللّه به هذا الشرف والسعادة ، بل وبـرآء من أن يــدعي لهم مســاواة من فضــلهم النـبي صــلّى اللّه عليه وسلّم عليهم كأبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما.

ثم ألف من بعـده فخر الـدين الـرازي كتـاب عصـمة الأنبيــاء هــذا الــذي نقدمه للقــراء ، وســار فيه على نهج الشــريف المرتضى من الحجــاج العقلي والإعــراض عن النصــوص ، ورميها بأنها ظنية ، لأنها خــبر آحــاد ، أو لأنها لفظية أو نحو ذلك ووقع في مثل ما وقع فيه الشـــــريف المرتضى من الطعن على أهل الحديث الـذين هم أعـرف الناس بحقوق الأنبياء واتبع النـاس لسـبيلهم غـير أنه أجـاد في مواضع من الكتاب على اختصار ونزه كتابه عن دعوى العصمة لغير الأنبياء.

وفاتني أن أعلق على قصة داود في أثناء الطبع بكلام نفيس ذكره الإمام تقي الدين السبكي في فتاويه. فإتماما للفائدة أنقله هنا برمته.

« تكلم النــاس في قصة داود عليه الســلام وأكـثروا. وذلك مشـهور جـدا. وذكـروا أمـورا منها ما هو منكر عند العلماء جـدا. ومنها ما ارتضـاه بعضـهم وهو عنـدي منكـر. وتأملت القرآن فظهر لي فيه وجه خلاف ذلك كلـه. فـإني نظــرت قوله تعــالى : (**فَغَفَرْنَا لَــهُ ذَٰلِــكَ**) [1] فوجدته يقتضي أن المغفــــور في الآية. فطلبته فوجدته أحد ثلاثة أمــور : إما ظنه أن اللّه فتنه ، وإما اشــتغاله بــالحكم عن العبادة. وإما اشتغاله بالعبادة عن الحكم ، أشعر به قوله : (ٱلْمِحْــرَابَ) وذلك أنه صح عن النــبي صــلّى اللّه عليه وســلّم أن داود أعبد البشر وكـان داود في ذلك اليـوم قد انقطع في المحراب للعبادة

1 ـ سورة ص الآية 25.

الخاصة بينه وبين اللّه تعالى ، فجاء الخصوم فلم يجدوا طريقا فتسوروا عليه. وليسوا ملائكة ولا ضرب بهم المثل. وإنما هم قوم تخاصموا في نعاج على ظاهر الآية. فلما وصلوا إليه حكم فيهم ثم أنه من شدة خوفه وكثرة عبادته خاف أن يكون اللّه سبحانه قد فتنه بذلك : إما لاشتغاله عن الحكم بالعباد ذلك اليوم. وإما لاشتغاله عن العبادة بالحكم تلك اللحظة وظن أن اللّه فتنه أي امتحنه واختبره ، أهل يترك الحكم للعبادة أو العبادة للحكم؟ فاستغفر ربه. فاستغفاره لأحد هذين الأمرين المظنونين أعني تعلق الظن بأحدهما. قال اللّه تعالى : (**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ**) فاحتمل المغفور أحد هذين الأمرين ، واحتمل ثالثا وهو ظنه أن يكون اللّه لم يردّ فتنته ، وإنما أراد إظهار كرامته. وانظر قوله تعالى : (**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ**) [1] كيف يقتضي رفعة قدره.

وقوله : (**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**) [2] يقتضي ذلك ويقتضي ترجيح الحكم على العبادة. وعلى أي وجه من الأوجه الثلاثة حملته حصل تبرئة داود عليه السلام مما يقوله القصاص وكثير من الفضلاء ا هـ.

وللإمام ابن القيم رحمه اللّه تعالى في كتاب « مفتاح دار السعادة » فصول قيمة جدا في الكلام على قصة آدم عليه السلام وما فيها من الحكم البالغة والمعاني السامية ، وله فصول في آخر الجزء الثاني في فضل توبة آدم ومزيتها من أحل وأبدع ما كتب الكاتبون تريك أن ذلك كان من أعظم نعم اللّه على آدم ، وإكرامه. فطالعه فإنه ينفعك. وصلى اللّه على نبينا محمد وآله وصحبه.

---

1 ـ سورة ص الآية 40.
2 ـ سورة ص الآية 26.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه المتعـــــالي بجلال أحديته عن مســــارح الخواطر والأوهام ، المقدس بكمـال صـمديته عن مسـابح البصـائر والأفهـام. المتـنزه لوجـوب هويته عن مشـاكلة الأعــراض والأجســام. المــبرأ بعظمة آلهيته عن بــواعث الإقدام وصوارف الأحجام ، الـذي لا يتغـير بكـرور الـدهور ومرور الشهور والأعوام. ولا يؤده إنعام سجال [1] الخواص والعــوام من الإحســان والإنعــام. والصــلاة على محمد المبعـوث إلى لحافة الأنـام ، والسـلام على آله وأصـحابه ائمة الإسلام.

(أما بعد) فهذه رسالة عملناها في النضح عن رسل اللّه وأنبيائه ، والــذب عن خلاصة خلقه واتقيائه ، وإبانة ما أتى به أهل الحشو من إحالة الــذنوب والجــرائم عليهم ، ونســبة الفضــائح والقبــائح إليهم ، وأنه زور وبهتــان ، وحســبان عاطل عن الحجة والبرهــان ، وأنهم يتجشــئون من غير شبع ، ويطمعون في غير مطمع ، وأن شبهاتهم لا تقــوى على مقاومة الســاعد الأشد ولا تسم على المنهج الأسد (**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْـرُجُ مِنْ أَفْـوٰاهِهِمْ إِنْ يَقُولُـونَ إِلاّ كَـذِباً**) [2] واللّه المحمــود على ما أفــاض من توفيق ، والمشـــكور على ما منح من تحقيق ، وهو حســـبنا ونعم الوكيل.

---

1 ـ سجال للمبالغة في الكثرة.

2 ـ سورة الكهف آية 5.

فصل

(في شرح الأقوال والمذاهب في هذه المباحث والمطالب)

(أعلم) أن الاختلاف في هـــذه المســـألة واقع في أربعة مواضع :

(الأول) ما يتعلق بالاعتقاديــة. واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصـومون عن الكفر والبدعة إلا الفضـيلية من الخروج فـإنهم يجـوزون الكفر على الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام. وذلك لأن عنـدهم يجـوز صـدور الـذنوب عنهم ، وكل ذنب فهو كفر عندهم ، فبهـذا الطريق جـوزوا صـدور الكفر عنهم ، والــروافض فــإنهم يجــوزون عليهم إظهــار كلمة الكفر على سبيل التقية [1].

(الثاني) ما يتعلق بجميع الشرائع والأحكـام من اللّه تعالى ، وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب لا بالعمد ولا بالســهو ، وإلا لم يبق الاعتمــاد على شيء من الشرائع.

(الثــالث) ما يتعلق بــالفتوى. وأجمعــوا على أنه لا يجوز تعمد الخطأ فأما على سبيل السهو فقد اختلفوا فيه.

---

1 ـ قـال أبو محمد بن حـزم رحمه اللّه في الملل والنحل : « فـذهبت طائفة الى أن الرسل صـلى الله عليهم وسـلم يعصـون اللّه في جميع الكبـائر والصـغائر عمـدا ، حـاش الكـذب في التبليغ فقط. وهـذا قـول الكرامية من المرجئة ، وقول ابن الطيب البـاقلاني من الاشـعرية ومن تبعه ، وهو قـــول اليهـــود والنصـــارى ، وســـمعت من يحكي عن بعض الكرامية أنهم يجـــوزون على الرسل الكـــذب في التبليـــغ. واما هـــذا البـــاقلاني فانا رأينا في كتـــاب صـــاحبه ابي جعفر الســـمناني قاضي الموصل أنه كـان يقــول : كل ذنب دق أو جل فانه جــائز على الرسل حاش الكذب في التبليغ فقط. قال : وجائز عليهم أن يكفروا.

(الرابع) ما يتعلق بأفعالهم وأحـوالهم. وقد اختلفـوا فيه على خمسة مذاهب :

(الأول) الحشوية : وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر.

(الثـاني) أنه لا يجـوز منهم تعمد الكبـيرة البتة وأما تعمد الصغيرة فهو جائز ، بشرط أن لا تكـون منفـرا. وأما إن كانت منفـرا فـذلك لا يجـوز عليهم ، مثل التطفيف بما دون الحبة [1] وهو قول أكثر المعتزلة.

(الثالث) أنه لا يجوز عليهم تعمد الكبيرة والصغيرة ، ولكن يجـوز صـدور الـذنب منهم على سـبيل الخطأ في التأويل ، وهو قول أبى علي الجبائي [2].

(الرابع) أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصـغيرة ، لا بالعمد ولا بالتأويل والخطأ. أما السهو والنسيان فجـائز ثم إنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان ، لما أن علـومهم أكمل ، فكـان الـواجب عليهم المبالغة في التيقظ ، وهو قول أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام [3].

(الخامس) أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالسـهو والنسـيان. وهـذا مـذهب الشيعة.

واختلفوا أيضا في وقت وجوب هذه العصمة.

فقال بعضهم : إنها من أول الولادة إلى آخر العمر.

وقـال الأكـثرون : هـذه العصـمة إنما تجب في زمـان النبوة. فأما قبلها فهي غير واجبة. وهو قول أكـثر أصـحابنا رحمهم اللّه تعالى [4].

---

1 ـ الحبة : صـنجة تـزن مائة حبة خـردل وهي جـزء من سـتين في المثقال.

2 ـ من أئمة المعتزلة ، اشـتهر في البصـرة ، له آراء انفـرد بها عن المذهب ت 303 هـ.

3 ـ من ائمة المعتزلة له فرقة « النظامية » كتب في الفلسـفة والاعتزال ت 231 هـ.

4 ـ وهو أيضا قول ابي هذيل وابي علي من المعتزلة.

والـذي نقـول : إن الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصـغائر بالعمـد. أما على سبيل السهو فهو جائز ويدل على وجوب العصمة وجوه خمسة عشرة :

(الحجة الأولى) لو صدر الـذنب عنهم لكـان حـالهم في اسـتحقاق الـذم عـاجلا والعقـاب آجلا أشد من حـال عصاة الأمة ، وهذا باطل ، فصدور الذنب أيضا باطل.

بيـان الملازمة : أن أعظم نعم اللّه على العبـاد هي نعمة الرسالة والنبوة وكل من كانت نعم اللّه تعـالى عليه أكـثر كـان صـدور الـذنب عنه أفحش وصـريح العقل يـدل عليه ، ثم يؤكده من النقل ثلاثة وجوه :

(الأول) قوله تعالى : (**يٰا نِسٰاءَ اَلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ اَلنِّسٰاءِ**) [1] وقال تعالى : (**يٰا نِسٰاءَ اَلنَّبِيِّ مَنْ يَـأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا اَلْعَذٰابُ ضِـعْفَيْنِ**) [2].

(الثاني) أن المحصن يرجم وغيره يجلد.

(الثالث) أن العبد يحد نصف حد الحر.

فثبت بما ذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكـان حـالهم في استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة ، إلا أن هذا باطل بالإجماع فإن أحـدا لا يجـوز أن يقول إن الرسول أحسن حالا عند اللّه وأقل منزلة من كل أحد. وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم.

(الحجة الثانية) لو صـدر الـذنب عنهم لما كـانوا مقبولي الشهادة لقوله تعالى : (**يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**) [3]

---

1 ـ سورة الأحزاب الآية 32.
2 ـ سورة الأحزاب الآية 30.
3 ـ سورة الحجرات الآية 6 وهما قراءتان مشهورتان فتثبتوا وفتبينوا.

أمر بــالتثبت والتوقف في قبــول شــهادة الفاسق ، إلا أن هذا باطل فإن من لم تقبل شهادته في حال الــدنيا فكيف تقبل شـهادته في الأديـان الباقية إلى يـوم القيامة ، وأيضا فإنه تعالى شهد بأن محمـدا عليه الصـلاة والسـلام شـهيد على الكل يـوم القيامة ، قـال : (**وَكَـذٰلِكَ جَعَلْنٰـاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى اَلنّٰـاسِ وَيَكُـونَ اَلرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيداً**) [1] ومن كـان شـهيدا لجميع الرسل يـوم القيامة كيف يكون بحال لا تقبل شهادته في الجنة.

(الحجة الثالثة) لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم ، لأن الــدلائل دالة على وجــوب الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر ، لكن زجر الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام غـير جائز ، لقوله تعالى : (**إِنَّ اَلَّذِينَ يُـؤْذُونَ اَللّٰـهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فِي اَلدُّنْيٰا وَاَلْآخِرَةِ**) [2] فكان صـدور الـذنب عنهم ممتنعا.

(الحجة الرابعة) لو صـــدر الفسق عن محمد عليه الصـلاة والسـلام لكنا إما أن نكـون مـأمورين بالاقتـداء به وهذا لا يجوز ، أو لا نكون مأمورين بالاقتداء به وهـذا أيضا باطل لقوله تعـــالى : (**قُـــلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اَللّٰـــهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اَللّٰهُ**) [3] ولقوله تعالى : (**فَاتَّبِعُوهُ**) [4] ولما كـان صــدور الفسق يفضي إلى هــذين القســمين الباطلين كان صدور الفسق عنه محالا.

(الحجة الخامسة) لو صـدرت المعصـية عن الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام لوجب أن يكونوا موعـودين بعـذاب اللّه بعـــذاب جهنم؛ لقوله تعـــالى : (**وَمَنْ يَعْصِ اَللّٰـــهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ**

---

1 ـ سورة البقرة الآية 143.
2 ـ سورة الأحزاب الآية 57.
3 ـ سورة آل عمران الآية 31.
4 ـ سورة الأنعام الآية 153.

نٰاراً خٰالِداً فِيهٰا وَلَهُ عَذٰابٌ مُهِينٌ) [1] ولكانوا ملعونين ، لقوله تعــالى : (**أَلاٰ لَعْنَــةُ اَللّٰــهِ عَلَى اَلظّٰــالِمِينَ**) [2] وبإجمــاع الأمة هــذا باطل فكــان صــدور المعصــية عنهم باطلا.

(الحجة السادسة) أنهم كــانوا يــأمرون بالطاعــات وترك المعاصي ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لـدخلوا تحت قوله تعالى : (**يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُــونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُــونَ كَبُــرَ مَقْتــاً عِنْــدَ اَللّٰــهِ أَنْ تَقُولُــوا مٰا لاٰ تَفْعَلُــونَ**) [3] وتحت قوله تعــالى : (**أَتَــأْمُرُونَ اَلنّٰــاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَــوْنَ أَنْفُسَــكُمْ**) [4] ومعلــوم أن هــذا في غاية القبح ، وأيضا أخــبر اللّٰه تعــالى عن رســوله شــعيب عليه الصــلاة والســلام أنه بــرأ نفسه من ذلك ، فقــال : (**وَمٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ**) [5].

(الحجة السابعة) قال اللّٰه تعالى في صـفة إبـراهيم وإسحاق ويعقوب (**إِنَّهُمْ كٰانُوا يُسٰارِعُونَ فِي اَلْخَيْرٰاتِ**) [6] والألف واللام في صيغة الجمع تفيد العمــوم فــدخل تحت لفظ (الخــيرات) فعل كل ما ينبغي وتــرك كل ما لا ينبغي ، وذلك يدل على أنهم كانوا فــاعلين لكل الطاعــات وتاركين لكل المعاصي.

(الحجة الثامنة) قوله تعــالى (**وَإِنَّهُمْ عِنْــدَنٰا لَمِنَ اَلْمُصْــطَفَيْنَ اَلْأَخْيٰــارِ**) [7] وهو أن اللفظين أعــني قوله تعالى (**اَلْمُصْـطَفَيْنَ**) وقوله (**اَلْأَخْيٰـارِ**) يتنـاولان جملة الأفعال والتروك ، بدليل جواز الاستثناء ، يقــال : فلان من المصــطفين الأخيــار إلا في كــذا ، والاســتثناء يخــرج من الكلام ما لولاه لـدخل ، فـدلت هـذه الآية على أنهم كـانوا من المصطفين

---

1 ـ سورة النساء الآية 14.
2 ـ سورة هود الآية 18.
3 ـ سورة الصف الآية 3.
4 ـ سورة البقرة الآية 44.
5 ـ سورة هود الآية 88.
6 ـ سورة الأنبياء الآية 90.
7 ـ سورة ص الآية 47.

الأخيار في كل الأمور. وهـذا ينـافي صـدور الـذنب عنهم ، ونظيره قوله تعالى (**اَللّهُ يَصْطَفِي مِنَ اَلْمَلاٰئِكَةِ رُسُـلاً وَمِنَ اَلنّاسِ**) [1] وقوله تعـالى (**إِنَّ اَللّـهَ اِصْـطَفىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْـرٰاهِيمَ وَآلَ عِمْـرٰانَ عَلَى اَلْعٰـالَمِينَ**) [2] وقـال في حق إبـراهيم (**وَلَقَـدِ اِصْـطَفَيْنٰاهُ فِي اَلـدُّنْيٰا وَإِنَّهُ فِي اَلْآخِـرَةِ لَمِنَ اَلصّـالِحِينَ**) [3] وقــال في حق موسى عليه الصــلاة والســلام (**إِنِّي اِصْــطَفَيْتُكَ عَلَى اَلنّـاسِ بِرِسٰـالاٰتِي وَبِكَلاٰمِي**) [4] وقـال تعـالى (**وَاُذْكُـرْ عِبٰادَنٰا إِبْــرٰاهِيمَ وَإِسْــحٰاقَ وَيَعْقُــوبَ أُولِي اَلْأَيْــدِي وَاَلْأَبْصٰارِ. إِنّا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى اَلدّارِ**) [5].

لا يقـال : الاصـطفاء لا يمنع من فعل الـذنب ، بـدليل قوله تعـالى : (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْكِتٰـابَ اَلَّذِينَ اِصْـطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ بِـإِذْنِ اَللّـهِ**) [6] قسّـم المصـطفين إلى الظالم والمقتصد والسابق ، لأنّا نقول : الضـمير في قوله (**فَمِنْهُمْ**) عائد إلى قوله (**مِنْ عِبٰادِنٰا**) لا إلى قوله (**اَلَّذِينَ اِصْطَفَيْنٰا**) لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب.

(الحجة التاســعة) قوله تعــالى حكاية عن إبليس (**فَبِعِزَّتِـــــكَ لَأُغْـــــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّ عِبٰــــادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ**) [7] اسـتثنى المخلصـين من إغوائه وإضـلاله ، ثم إنه تعالى شهد على إبـراهيم وإسـحاق ويعقـوب عليهم الصــلاة والســلام أنهم من المخلصــين ، حيث قــال (**إِنّا أَخْلَصْــنٰاهُمْ بِخٰالِصَــةٍ**) [8] وقــال في حق يوسف عليه الصلاة والسلام (**إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُخْلَصِينَ**) [9]

---
1 ـ سورة الحج الآية 75.
2 ـ سورة آل عمران الآية 33.
3 ـ سورة البقرة الآية 130.
4 ـ سورة الاعراف الآية 144.
5 ـ سورة ص الآية 46.
6 ـ سورة فاطر الآية 32.
7 ـ سورة ص الآية 83.
8 ـ سورة ص الآية 46.
9 ـ سورة يوسف الآية 24.

فلما أقرا إبليس أنه لا يغوي المخلصين ، وشهد اللّه بأن هؤلاء من المخلصين ثبت أن إغواء إبليس ووسوسته ما وصلت إليهم ، وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم.

(الحجة العاشرة) قال اللّه تعالى (**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ**) [1] فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال : إنهم الأنبياء أو غيرهم ، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم ، لقوله تعالى (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ**) [2] وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع. فوجب القطع بأن اولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس فدل هذا على أن الأنبياء صلوات اللّه عليهم ما أذنبوا.

(الحجة الحادية عشرة) أنه تعالى قسم المكلفين إلى قسمين : حزب الشيطان كما قال تعالى (**أُولٰئِكَ حِزْبُ اَلشَّيْطٰانِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَلشَّيْطٰانِ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ**) [3] وحزب اللّه كما قال تعالى (**أُولٰئِكَ حِزْبُ اَللّٰهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ**) [4] ولا شك أن حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يريد الشيطان ويأمره به. فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان ، ولصدق عليهم قوله تعالى (**أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَلشَّيْطٰانِ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ**) ولصدق على الزهاد من آحاد الامة قوله تعالى (**أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ**) وحينئذ يلزم أن يكون واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ، ولا شك في بطلانه.

---

1 ـ سورة سبأ الآية 20.
2 ـ سورة الحجرات الآية 13.
3 ـ سورة المجادلة الآية 19.
4 ـ سورة المجادلة الآية 22.

(الحجة الثانية عشـــرة) إن أصـــحابنا رحمهم اللّه تعالى بينـوا أن الأنبيـاء أفضل من الملائكة وثـابت بالدلالة على أن الملائكة ما أقدموا على شـيء من الـذنوب ، فلو صدرت الـذنوب عن الأنبيـاء لامتنع أن يكونـوا زائـدين في الفضل على الملائكة لقوله تعـــالى (**أَمْ نَجْعَـــلُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا اَلصّٰـالِحٰاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي اَلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ اَلْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ**) [1].

(الحجة الثالثة عشـــرة) قــال اللّه تعــالى في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام (**إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً**) [2] والإمــام هو الــذي يقتــدى به فلو صــدر الــذنب عن إبراهيم لكـان اقتـداء الخلق به في ذلك الـذنب واجبا وإنه باطل.

(الحجة الرابعة عشــرة) قوله تعــالى : (**لاٰ يَنٰـالُ عَهْـدِي اَلظّٰـالِمِينَ**) [3] فكل من أقـدم على الـذنب كـان ظالما لنفسه لقوله تعالى : (**فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ**) [4].

إذا عـرفت هـذا فنقـول : ذلك العهد الـذي حكم اللّه تعــالى بأنه لا يصل إلى الظـــالمين إما أن يكـــون هو عهد النبوة أو عهد الإمامة ، فإن كان الأول فهو المقصود ، وإن كان الثاني فالمقصـود أشـهر ، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبــوة ، فــإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المــذنب العاصي ، فبأن لا يصل عهد النبوة إليه أولى.

(الحجة الخامسة عشـرة) روي أن خزيمة بن ثـابت الأنصــاري رضي اللّه عنه شـــهد على وفق دعــوى النــبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع أنه ما كــان عالما بتلك الواقعة فقـال خزيمة : « إني أصـدقك فيما تخـبر عنه من أحــوال السماء ،

1 ـ سورة ص الآية 28.
2 ـ سورة البقرة الآية 124.
3 ـ سورة البقرة الآية 124.
4 ـ سورة خاطر الآية 32.

أفلا أصدقك في هذا القـدر؟! فلما ذكر ذلك صـدقه النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم فيه ولقبه بـذي الشـهادتين [1] ولو كان الذنب جائزا على الأنبيـاء لكـانت شـهادة خزيمة غـير جائزة.

(واعلم) أنا لما فرغنا من ذكر الـدلائل الدالة على عصمة الأنبياء فلنذكر الآن ما يـدل على عصـمة الملائكـة. ويدل عليه وجوه أربعة :

(الأول) قوله تعالى في صفة الملائكة : (**يَخٰـافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَـوْقِهِمْ وَيَفْعَلُـونَ مٰا يُـؤْمَرُونَ**) [2] يتنـاول جميع الملائكة في فعل جميع المـــأمورات وتـــرك جميع المنهيات ، لأن كل من نهى عن فعل فقد أمر بتركه.

(الثـاني) قوله تعـالى في وصـفهم (**بَـلْ عِبٰـادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِـأَمْرِهِ يَعْمَلُـونَ**) [3].

(الثالث) قوله تعالى : (**يُسَبِّحُونَ اَللَّيْلَ وَاَلنَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ**) [4] وما كانت صفته كذلك لا يصدر عنه الذنب.

(الرابع) أن الملائكة رسل اللّه لقوله تعـــالى : (**جٰاعِلِ اَلْمَلاٰئِكَةِ**

1 ـ هو خزيمة بن ثـابت الأوسي الانصـاري من السـابقين الاولين. روى عنه ابنه عمارة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اشترى فرسا من سـواء بن قيس المحاربي فجحده سـواء فشـهد خزيمة للنـبي صـلّى اللّه عليه وسلّم فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما حملك على الشـهادة ولم تكن معنا حاضرا؟ قال : صـدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقـول الا حقا فقال النبي صلّى اللّه تعالى عليه وسلم : من شهد له خزيمة أو عليه فهو حســـبه » وحديثه رواه أبو داود وغـــيره ، وجعل شـــهادته بشهادتين رواه البخاري.
2 ـ سورة النحل الآية 50.
3 ـ سورة الأنبياء الآية 27.
4 ـ سورة الأنبياء الآية 20.

رُسُلاً) [1] والرسل معصومون لقوله تعـالى في تعظيمهم : (**اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ**) [2].

فهـذا مجمـوع الـدلائل على عصـمة الأنبيـاء وعصـمة الملائكة صلوات اللّه عليهم أجمعين.

(واعلم) أن شـبهات المخـالفين في هـذه المسـألة كثيرة ، ونحن نذكرها على سبيل الاختصار.

---

1 ـ سورة فاطر الآية 1.

2 ـ سورة الانعام الآية 124.

عصمة آدم عليه السلام

أما قصة آدم عليه السلام فقد تمسكوا بها من وجــوه ستة :

(الأول) أنه كــان عاصــيا والعاصي لا بد وأن يكــون صاحب الكبيرة ، وإنما قلنا : إنه كان عاصيا لقوله تعـالى : (**وَعَصَــىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَــوىٰ**) [1] وإنما قلنا إن العاصي صاحب الكبيرة لوجهين :

(أحـــدهما) أن النص يقتضي كونه متعاقبا وهو قوله تعالى : (**وَمَنْ يَعْصِ اَللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِـداً فِيهٰا**) [2] ولا معـنى لصـاحب الكبـيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه.

(وثانيهما) أن العصــــيان اسم ذم فلا يطلق إلا على صاحب الكبيرة.

(الثاني) أنه تائب والتائب مذنب. وإنما قلنا أنه تائب لقوله تعـالى (**ثُمَّ اِجْتَبٰـاهُ رَبُّهُ فَتٰـابَ عَلَيْـهِ وَهَـدىٰ**) [3] وقوله تعــالى : (**فَتَلَقّٰى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰــاتٍ فَتٰــابَ عَلَيْهِ**) [4] وإنما قلنا إن التائب مذنب لأن التـائب هو النـادم على فعل الذنب والنادم على فعل الذنب مخــبر عن كونه فاعلا للذنب ، فإن كذب في ذلك الاخبار فهو مــذنب بفعل الكذب وإن صدق فيه فهو المطلوب.

1 ـ سورة طه الآية 121.
2 ـ سورة النساء الآية 14.
3 ـ سورة طه الآية 122.
4 ـ سورة البقرة الآية 37.

(الثــالث) أنه ارتكب المنهى عنه ، لقوله تعــالى : (**أَلَمْ أَنْهَكُمٰا عَنْ تِلْكُمَا اَلشَّـجَرَةِ**) [1] وقوله تعـالى (**وَلاٰ تَقْرَبٰا هٰــذِهِ اَلشَّــجَرَةَ**) [2] وارتكـــاب المنهى عنه عين الذنب.

(الرابع) أنه تعـالى سـماه ظالما في قوله (**فَتَكُونٰا مِنَ اَلظّٰالِمِينَ**) [3] وهو أيضا سمى نفسه ظالما في قوله (**رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا**) [4] والظالم ملعون لقوله تعـالى (**أَلاٰ لَعْنَةُ اَللّٰهِ عَلَى اَلظّٰالِمِينَ**) [5] ومن كـان كـذلك كـان صاحب كبيرة.

(الخامس) أنه اعـترف بأنه لو لا مغفـرة اللّه تعـالى له لكـان خاســرا في قوله تعــالى (**وَإِنْ لَمْ تَغْفِـرْ لَنٰا وَتَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**) [6] وذلك يقتضي كونه صاحب كبيرة.

(الســادس) أنه أخــرج من الجنة بســبب وسوسة الشــيطان وإزلاله جــزاء على ما أقــدم عليه من طاعة الشيطان ، وذلك يدل على كونه صاحب كبيرة.

ثم قالوا : إن كل واحدة من هذه الوجوه لا يـدل على كونه فاعل كبيرة ، ولكن مجموعها قـاطع في الدلالة عليه ، ويجـوز أن يكـون كل واحد من الوجـوه وإن لم يكن دالا على الشيء إلا أنها عند الاجتمـاع تصـير دالة كما قلنا في القرائن.

(والجواب) عن الكل عندنا : أن ذلك كان قبل النبوة ، فلا يكون واردا علينا.

---

1 ـ سورة الاعراف الآية 22.
2 ـ سورة البقرة الآية 35.
3 ـ سورة البقرة الآية 35.
4 ـ سورة الاعراف الآية 23.
5 ـ سورة هود الآية 18.
6 ـ سورة الاعراف الآية 23.

فأما الذين لم يجوزوا صدور المعصية عن الأنبياء قبل النبوة فقد أجابوا عن كل واحدة من هذه الوجوه.

(أما الأول) فقالوا : المعصية مخالفة الأمر ، فـالأمر قد يكون بالواجب والندب ، فـإنهم يقولـون : أشـرت عليه في أمر ولــده بكــذا فعصــاني ، وأمرته بشــرب الــدواء فعصـاني. وإن كـان كـذلك لم يمتنع أن يكـون إطلاق اسم العصيان على آدم ، لا لكونه تاركا للواجب بل للمندوب.

ولقائل أن يقـول : إنا قد بينا أن ظـاهر القـرآن يـدل على أن العاصي يسـتحق العقـاب وذلك يقتضي تخصـيص اسم العاصي بـترك الـواجب فقط وبينا أنه أيضا اسم ذم؛ فوجب أن لا يتناول إلا تارك الواجب ، ولأنه لو كـان تـارك المندوب عاصيا لوجب وصف الأنبياء بـأنهم عصـاة في كل حــال وأنهم لا ينفكــون عن المعصــية ، لأنهم لا يكــادون ينفكــون عن تــرك المنــدوب ، لا يقــال : وصف تــارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد. لأنا نقول : لما ســلمت كونه مجــازا فالأصل عدمه وحينئذ يتم اســتدلال الخصم.

فأما قوله : أشـرت إليه في أمر ولـده بكـذا فعصـاني فإنا لا نسلم أن هـذا الاسـتعمال مـروي عن العـرب ، وإن ســــلمناه لكنهم إنما يطلقــــون ذلك إذا جزمــــوا على المستشـير بأنه لا بد وأن يفعل ذلك الفعل ، وأنه لا يجـوز الإخلال به وحينئذ يكــون معــنى الإيجــاب حاصلا ، وإن لم يكن الوجوب حاصلا. وذلك يـدل على أن لفظ العصـيان لا يجــوز إطلاقه إلا عند تحقق الإيجــاب لكن أجمعنا على أن الإيجاب من اللّه يقتضي الوجوب ، فلـزم أن يكـون إطلاق لفظ العصيان على آدم إنما كان لكونه تاركا للواجب.

(وأما الثـاني) وهو أنه تـائب ، فقد أجـاب من جـوّز الصـــغيرة بـــأن التوبة تجب من الصـــغائر كما تجب من الكبائر ، فإن الصغيرة إذ لم يتب منها صاحبها صار مصــرا عليها والإصرار على أي ذنب كان كبيرة.

وأما من لم يجوز الصـغيرة فقد أجـاب بـأن التوبة قد تحسن ممن لم يـذنب قط على سـبيل الانقطـاع إلى اللّه تعالى والرجوع إليه ، ويكون وجه حسنها استحقاق الثواب بها ابتداءً. والذي يدل عليه أنا نقول :

« اللهم اجعلنا من التــوابين » [1] فلو كــان حســنها مسبوقا بفعل الذنب لكان ذلك سؤالا لصيرورتنا مـذنبين ، وأنه لا يجوز.

(وأما الثــالث) فهو ارتكــاب المنهى ، فــالجواب أنا نقول : لا نسلم أن النهي للتحـريم فقط ، بل هو مشـترك بين التحــريم والتنزيه وتفســيره أن النهي يفيد أن جــانب الترك راجح على جانب الفعل.

فأما جانب الفعل فهل يقتضي استحقاق العقـاب أو لا يقتضي؟ فـذلك خـارج عن مفهـوم اللفظ وإذا كـان كـذلك سقط الاستدلال.

ســلمنا أن النهي للتحــريم لكنه ارتكبه ناســيا لقوله تعالى : (**فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَـهُ عَزْمـاً**) [2] وحينئذ لم يكن ذنبا لأن التكليف مرتفع عن الناسي ، ولقائل أن يقول : لا نسـلم أنه ارتكبه ناسـيا. والـدليل عليه قوله تعـالى : (**مٰا نَهٰاكُمٰا رَبُّكُمٰا عَنْ هٰذِهِ اَلشَّجَرَةِ إِلاّٰ أَنْ تَكُونٰا مَلَكَيْنِ**) [3] وقوله (**وَقٰاسَــمَهُمٰا إِنِّي لَكُمٰا لَمِنَ اَلنّٰاصِــحِينَ**) [4] وكل ذلك يدل على أنه

---

1 ـ ورد « اللهم اجعلني من التوابين » وهذا قسم من حديث الوضـوء ، رواه الترمذي عن عمر.
2 ـ سورة طه الآية 115.
3 ـ سورة الأعراف الآية 20.
4 ـ سورة الأعراف الآية 21.

ما نسي النهي حال الإقـدام على ذلك الفعل ، وأيضا فلأنه لو كـان ناسـيا لما عـوتب على ذلك الفعل ، ولما سـمي بالعاصي ، فحيث عوتب عليه دل على أنه ما كان ناسـيا ، وأما قوله تعالى : (**فَنَسِيَ**) ففيه إثبـات أنه نسي وليس فيه أنه ما نسي سـلمنا أنه لم يكن ناسـيا ولكنه اخطأ في الاجتهـاد وذلك لأن كلمة (هــذه) في قوله : (**وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ اَلشَّجَرَةَ**) [1] قد يراد بها الإشـارة إلى الشـخص وقد يــراد بها الإشــارة إلى النــوع كما في قوله عليه الصــلاة والسـلام : « هـذا وضـوء لا يقبل اللّه الصـلاة إلا به » [2] فـآدم عليه الصـلاة والسـلام اشـتبه الأمر عليه فظن أن المـراد هو الشـخص فعـدل عنه إلى شـخص آخر إلا أن المجتهد إذا أخطأ في الفروع لم يكن صاحب كبيرة.

لا يقـال : كلمة (هــذه) لما احتملت الأمـرين كـان البيـان حاصلا في ذلك الـوقت لأن تـأخير البيـان عن وقت الحاجة لا يجـوز وإذا كـان البيـان حاصلا لم يكن آدم عليه السلام معذورا في ذلك الخطأ لأنا نقول : لعل البيان كـان حاصلا بطريق غامض خفي فالمخطئ فيه معذور.

(وأما الرابع) وهو أن اللّه تعـالى سـماه ظالما فقد أجـاب عنه من يجـوز الصـغيرة بـأن كل ذنب يـأتي به المكلف كبيرا كـان أو صـغيرا فهو ظـالم لنفسـه. وأما من لم يجوزها فأجـاب بـأن تـرك الأولى ظلم ، لأنه لما كـان متمكنا من فعل الأولى حـتى يسـتحق به الثـواب العظيم فلما تركه من غير موجب فقد تـرك حظ نفسه ومثل هـذا يجــوز أن يســمى ظالما لنفسه ، لأن حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهاهنا كذلك.

(وأما الخـامس) فـالجواب عنه : أنه محمـول على الصغيرة أو على ترك الأولى وتقديره ما تقدم.

1 ـ سورة البقرة الآية 35.

2 ـ رواه ابن ماجه ولفظه (هـذا وضـوء من لا يقبل الله منه صـلاة الا به).

(وأما الســـادس) فجوابه : أنه ليس في الآية إلا أنه أخـــرج من الجنة عند إقدامه على هـــذا الفعل ، أو لأجل إقدامه على هـــــذا الفعل ، وذلك لا يــــدل على أن ذلك الإخــراج كـان على ســبيل التنكيل والاسـتخفاف ، وكيف واللّه تعـالى إنما خلق آدم ليكـون خليفه في الأرض؟ فلما كـان المقصـود الأصـلي من خلقه ذلـك؛ فكيف يقـال : إنه وقع ذلك عقوبة واستخفافا ، الـذي يـدل على أنه لا بد من المصــير إلى الوجــوه الــتي ذكرناها هو أنه عليه الصــلاة والســلام لو كــان عاصــيا في الحقيقة وكــان ظالما في الحقيقة لوجب الحكم عليه بأنه كان مستحقا للنار ، لقوله تعالى (**وَمَنْ يَعْصِ اَللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ**) [1] وبأنه كــان ملعونا لقوله تعــالى (**أَلاٰ لَعْنَــةُ اَللّــهِ عَلَى اَلظّـالِمِينَ**) [2] فلما اجتمعت الأمة على أن ذلك لا يجـوز علمنا قطعا أنه لا بد من التأويل وباللّه التوفيق.

الشبهة الثانية

تمسكوا بقوله تعـالى (**هُـوَ اَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا فَلَمّا تَغَشّٰـاهٰا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّا أَثْقَلَتْ دَعَـوَا اَللّـهَ رَبَّهُمٰا لَئِنْ آتَيْتَنٰا صٰالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشّـاكِرِينَ ، فَلَمّا آتٰاهُمٰا صٰـالِحاً جَعَلاٰ لَـهُ شُـرَكٰاءَ فِيمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰـالَى اَللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ**) [3].

قــالوا : لا شك أن النفس الواحــدة هي آدم ، وزوجها المخلوق منها هي حواء فهذه الكنايـات عائـدة إليهما قوله تعالى : (**جَعَلاٰ لَهُ**

1 ـ سورة الجن الآية 23.
2 ـ سورة هود الآية 18.
3 ـ سورة الأعراف الآية 189 ـ 190.

(**شُــرَكٰاءَ فِيمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰـالَى اَللّٰـهُ عَمّٰا يُشْــرِكُونَ**) يقتضي صدور الشرك عنهما.

ثم قــالوا : إن إبليس لما أن حملت حــواء عــرض لها ولد فقــال لها : إن أحببت أن يعيش ولــدك فســميه بعبد الحارث وكان إبليس يسمى الحـارث ، فلما ولـدت سـمته بهذه التسمية فلـذا قـال اللّه تعـالى : (**جَعَلاٰ لَهُ شُـرَكٰاءَ فِيمٰا آتٰاهُمٰا**).

(والجواب) الصحيح أنا لا نسـلم أن النفس الواحـدة في هــذه الآية هي آدم عليه السـلام ، وليس في الآية ما يـدل على ذلك ، بل نقـول : الخطـاب لقـريش ، وهو آل قصى. والمعنى خلقكم من نفس قصى وجعل من جنسـها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها. فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصـالح السـمي سـميا أولادهما الأربعة بعبد منـاف. وعبد العــزى. وعبد قصــى. وعبد الــدار ، والضــمير في (يشركون) لهما ولأعقابهما.

وذكــروا وجوها أخر ســوى ما ذكرنــاه وهي بأســرها ضعيفة :

(أولها) أن الكنايــات كلها عن آدم وحـــواء ، إلا في (جعلا) و (يشـــــركون آفإنهما يرجعـــان إلى نســـلهما وعقبهما ، ويكون تقـدير الكلام : فلما أتى اللّه آدم وحـواء الولد الصالح الذي طلباه جعل كفـار أولادهما ذلك مضـافا إلى غـير اللّه ، وإنما ثـنى ذكرهما لأنهما جنسـان من ذكر وأنـثى ، ويقـوى هـذا التأويل قوله (**فَتَعٰـالَى اَللّٰـهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ**) وذلك يـدل على أن المـراد بالتثنية ما ذكرنـاه من الجنسين.

(وثانيهما) أن قوله (**مِنْ نَفْسٍ وٰاحِـــــدَةٍ**) هو آدم وجعل من تلك النفس زوجها ، وهي حـــــواء ، إلى هاهنا حديث آدم وحواء.

ثم خص بالذكر المشركين من أولاد آدم الذين سـألوا ما سألوا

وجعلوا له شركاء. ويجوز أن يذكر العمــوم ثم يخص بعض المذكور بالذكر. ومثله كثـير في الكلام. قـال اللّه تعـالى (**هُوَ اَلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي اَلْبَرِّ وَاَلْبَحْـرِ حَتّى إِذٰا كُنْتُمْ فِي اَلْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَـةٍ**) [1] فعم جميع الخلق في أول الآية ثم خص في آخرها بعضهم. فكذا هاهنا.

(واعلم) أن هـذين يقتضـيان في الكنايـات المتوالية عقيب مـذكور واحد صـرف بعضـها إلى المـذكور وبعضـها إلى شيء آخر. وذلك يفكك النظم.

(وثالثها) أن تكون الهـاء في قوله تعـالى (**جَعَلاٰ لَهُ شُـــرَكٰاءَ**) راجعة إلى الولد ، لا إلى اللّه تعــالى. ويكـــون المعنى إنهما طلبا من اللّه تعـالى ابنا لا الولد الصـالح وهو كقوله : طلبت مني درهما فلما أعطيتك أشركته بـآخر أي طلبت آخر مضافا إليه.

وهـذا ضـعيف لـوجهين (أحـدهما) أن الهـاء في قوله (له) لما عــاد إلى الولد يصــير قوله تعــالى فلما آتاهما صالحا.

(الثاني) وهو أنه يصير قوله تعـالى (**فَتَعٰـالَى اَللّٰـهُ عَمّا يُشْرِكُونَ**) منقطعا عما قبله وذلك يـوجب الركاكـة. فهذا هو الكلام على الآية.

وأما الرواية التي ذكروها فهي ضعيفة لوجوه ثلاثة :

(الأول) أنها من بــاب الآحــاد فلا يكــون مقبــولا في العلميات.

(الثاني) أنه إما أن يقال : بأن آدم وحواء اعتقـدا أن الولد من خلق إبليس أو لم يعتقــــدا ذلك ولكنهما ســـــميا ولـدهما بعبد الحـارث مع أن الحـارث كـان اسم إبليس ، فإن كان الأول لزم أن يكـون آدم وحـواء قد اعتقـدا آلهية إبليس ، وذلك مما لا يذهب إليه عاقل. وإن

1 ـ سورة يونس الآية 22.

كان الثاني لم يلزم منه الكفر والشــرك ، لأن الاعلام تفيد تسمية الولد بعبد الحارث لا تفيد كونه عبد الحـارث ، فـإن الأعلام قائمة مقـــام الإشـــارة فقط ولا يلـــزم منه الكفر والفسق أصلا.

(الثـالث) أن العـداوة الشـديدة الـتي كـانت من آدم وإبليس من أول الأمر إلى وقت ذلك الحمل مانعة لآدم من الاغترار به.

هب أن آدم لم يكن نبيا ولم يكن مســـلما ، أما كـــان عــاقلا؟ فصــحّ أن هــذه الرواية الخبيئة لا يجــوز أن يقبلها عاقل فضلا عن مسلم [1].

1 ـ قـال الامـام الحافظ أبو محمد بن حـزم في كتـاب الملل والنحل : وهذا الذي نسبوه الى آدم عليه السـلام من انه سـمى ابنه عبد الحـرث خرافة موضــوعة مكذوبة من تــأليف من لا دين له ولا حيــاء ولم يصح سندها قط وانما نـزلت الآية في المشـركين على ظاهرها ا ه. والعجب أن ابن جرير ادعى الاجمـاع عليهـا. ثم اخذ يتمحل لـذلك محلات بعيـدة سخيفة فغفر اللّه له ولمن تبعه على هذه الخرافة.

قصة نوح عليه السلام

(وفيها شبهات)

(الشـبهة الأولى) تمسـكوا بقولهِ تعـالى : (**وَنٰـادىٰ نُـوحٌ رَبَّهُ فَقٰـالَ رَبِّ إِنَّ اِبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْـدَكَ اَلْحَـقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ اَلْحٰـاكِمِينَ قٰـالَ : يٰا نُـوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُـكَ أَنْ تَكُـونَ مِنَ اَلْجٰـاهِلِينَ**) [1] من وجهين :

(الأول) أن قوله تعالى : (**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْـرُ صٰـالِحٍ**) يـدل على أنه لم يكن ابنا ، وإذا كـان كـــذلك كـــان قوله (**إِنَّ اِبْنِي مِنْ أَهْلِي**) كـــذبا ، وهو معصية.

(الثاني) أن سـؤال نـوح عليه السـلام كـان معصـية لثلاث آيات :

(أحدها) قوله (**فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ**) [2].

---

1 ـ سورة هود الآية 45 ـ 46.

2 ـ قـال أبو محمد بن حـزم : وهـذا لا حجة لهم فيه ، لان نوحا عليه السـلام تـأول وعد اللّه تعـالى ان يخلصه وأهله ، فظن ان ابنه من أهله على ظـاهر القرابة وهـذا لو فعله أحد كـان مـأجورا ولم يسـأل نـوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع على ذلك نهى عن أن يكـون من الجاهلين فندم عليه السلام ونزع وليس هاهنا عمد للمعصية البتة.

(وثانيها) قوله خبرا عن نوح (**قٰالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاّٰ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**).

(وثالثها) قوله (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ) وفيها قراءتان قراءة الكسائي عمل غير صالح ، والمعنى أن ابنك عمل غير صالح والباقون بالتنوين والرفع. والأول مرجوح لأنه يقتضي إضمار الموصوف [1] وهو على خلاف الأصل فتعينت القراءة الثانية ، والهاء في قوله :

(إنه) ضمير والضمير لا بد وأن يكون عائدا إلى مذكور سابق والمذكور السابق هاهنا إما السؤال وإما الابن لا يجوز عوده إلى الابن لأن الابن لا يكون عملا غير صالح بل ذا عمل غير صالح ، فيقتضي الإضمار وإنه خلاف الأصل. فثبت أن الضمير عائد إلى السؤال فثبت أن ذلك كان عملا غير صالح.

(والجواب) : عن الأول أن المفسرين اختلفوا في هذا الابن على ثلاثة أقوال :

(الأول) فالأكثرون على أنه كان ابنا له لصلبه وهو الأقوى لقوله تعالى (**وَنٰادىٰ نُوحٌ اِبْنَهُ**) ، ثم اختلفوا فمنهم من قال ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، وقيل : ليس من أهل دينك وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعكرمة وميمون بن مهران.

(الثاني) أنه كان ابن امرأته إلا أنه لاختلاطه بأبنائه وأهل بيته

1 ـ موصوف (غير) أي عمل عملا غير صالح قال الشريف الرضى : ومع هذه القراءة لا شبهة في رجوع معنى الكلام الى الابن دون سؤال نوح. وقد قوى الشريف هذه القراءة وساق عليها شواهد من كلام العرب.

أطلق عليه لفظ الابن ، كما أن ابليس لاختلاطه بالملائكة إطلق عليه اسم الملــك. ويــدل عليه قوله (**إِنَّ اِبْنِي مِنْ أَهْلِي**) ولم : ويروى ذلك عن الباقين [1].

(الثالث) أنه ولد على فراشه لغير رشدة [2] ، وهو المروي عن الحسن ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير.

وهذان القولان ضعيفان ، لقوله تعالى (**وَنٰـادىٰ نُـوحٌ اِبْنَهُ**) والثالث أضـعف لأنه يجب تنزيه منصب الأنبيـاء عن مثل هذه الفضيحة [3].

وعن الشـبهة الثانية : أنا لا نسـلم أنه دعا لابنه مطلقا ، بل يشترط الإيمان لا يقـال : فلم قـال اللّٰه تعـالى (**فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ**) وقـال (**إِنِّي أَعِظُـكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ**) وقال نوح (**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْــئَلَكَ مٰا لَيْسَ لِي بِــهِ عِلْمٌ**)؟ لأنا نقــول : يمتنع أن يكون نوح عليه السلام نهى عن ذلك وإن لم يقع ذلك منه ، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام نهى عن الشرك لقوله تعالى (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ**) وإن لم يقع ذلك منــه؛ فأما قوله تعــالى (**إِنِّي أَعِظُــكَ أَنْ تَكُــونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ**) فمعنـاه أن لا تكـون منهم. ولا شك أن وعظه تعالى الذي صرف نوحا عليه السلام عن الجهل. وأما قول نـوح عليه السـلام (**إِنِّي أَعُـوذُ بِـكَ أَنْ أَسْـئَلَكَ مٰا لَيْسَ لِي بِــهِ عِلْمٌ**) فلا دلالة فيه على أنه فعل ذلك سـلمنا أنه دعا له مطلقا ، ولكن لشـــفقته الطبيعية قـــال ما قـــال ، والعقل لا ينكر الــدعاء للكــافر ، وإنما يمنع منه الشــرع ، فلعله دعــاء بمقتضى الطبع إلى أن ورد الشـــرع بـــالنهي عنه.

---

1 ـ وهو قـول محمد بن علي البـاقر والحسن البصـري ، كما يـروى ان عليا قرأ « ونادى نوح ابنها » والضمير لامرأته ، (مفـاتيح الغيب 5 /ـ 6 2).

2 ـ يريد أنه كان ولد زنى ، يقال : هذا ولد رشدة اذا كان لنكـاح صـحيح ، أما يقال ضده : ولد زنية.

3 ـ قال المؤلف عن هذا الرأي في تفسيره 5 / 63 : وهذا قول خبيث.

لا يقال : فلم سـأل من غـير إذن؟ لأنا نقـول : لما لم يجد نصا مانعا منه تمسك في الجواز بالإباحة الأصـلية ، أو نقـول : إنما كـان مسـلما في الظـاهر ، وكـان نـوح عليه الســلام مأذونا في الــدعاء للمســلمين فــدعا له بحكم الظـــاهر وذلك جـــائز لقوله عليه الســـلام « نحن نحكم بالظـاهر » [1] أو نقـول : هب أنه أخطأ في ذلك ، لكن إن قلت : إن ذلك من الكبـائر لقوله هـذا سـؤال (عمل غـير صالح) قلنا : لا نسلم والتعويل في تغيير هذا القسم على كون الإضـمار بخلاف الأصل ضـعيف لأن الأدلة الدالة على عصمة الأنبياء أقوى من الدليل الـدال على كـون الإضـمار بخلاف الأصل.

1 ـ لا يعرف بهذا اللفظ الذي ساقه المصنف. ولكن المشهور « أمـرت أن أحكم بالظـاهر واللّه يتـولى السـرائر » ذكر العجلـوني في كشف الخفـاء وقـال قـال في اللآلي هو غـير ثـابت بهـذا اللفظ. ولعله مـروي بالمعنى من أحـاديث صـحيحة ذكرتها في الاقضـية من الـذهب الابريـز. وقال في المقاصد : اشتهر بين الاصـوليين والفقهـاء بل وقع في شـرح النووي لمسلم في قوله صلّى اللّه عليه وسلّم « اني لم أومر أن أنقب عن قلـوب النـاس ولا أشق بطـونهم » ما نصه : معنـاه « أني أمـرت بالحكم بالظاهر واللّه يتولى السرائر » كما قـال النـبي صـلّى اللّه عليه وسلّم ا ه قال : ولا وجـود له في كتب الحـديث المشـهورة ولا الاجـزاء المنثورة. وجـزم الحافظ العـراقي بأنه لا أصل له وكـذا المـزى وغـيره. وقـال القـاري : وممن أنكـره الحافظ ابن الملقن في تخـريج أحـاديث البيضاوي. وقـال الزركشي لا يعـرف بهـذا اللفظ وقد أطـال العجلـوني الكلام على هذا الحديث فارجع إليه ان شئت.

قصة إبراهيم عليه السلام

تمسكوا بها [1] من وجوه تسعة :

(الشبهة الأولى) قوله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السـلام (**قَـالَ هَـٰذَا رَبِّي**) [2] فلا يخلو إما أن يقـال : إنه قال هذا الكلام في النظر والاستدلال ، أو بعده. فإن كــان الأول كان قطعه بـذلك مع تجـويزه أن يكـون الأمر بخلافه إخبارا عما يجوز المخبر كونه كاذبا فيه. وذلك غير جائز.

وإن كان الثاني كان ذلك كذبا قطعا ، بل كفرا قطعا.

(والجواب) قيل : إنه من كلام إبراهيم قبل البلــوغ. فإنه لما خطر بباله قبيل بلوغه حد التكليف إثبـات الصـانع ففكر فرأى النجوم ، فقال (هذا ربي) فلما شاهد حركتها قال : لا بد أن تكون ربا. وكذا الشــمس والقمر فبلغه اللّه تعالى في أثناء ذلك حد التكليف ، فقال (**إِنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**) [3] وإنما بلغ ذلك في النجوم والشمس والقمر لما فيه من العلو والنور.

ومنهم من سلم أنه كـان كلام إبـراهيم بعد البلــوغ ثم اختلفوا فمنهم من قال : يجـوز أن يكـون ذلك كلامه حـال اشتغاله بالنظر والاستدلال.

---

1 ـ أي يشبهه عصمته.
2 ـ سورة الانعام الآية 76.
3 ـ سورة الانعام الآية 78.

ثم إنه لم يقل (هــذا ربي) على ســبيل الإخبــار بل على سبيل الفرض كما أن الواحد منا إذا نظر في حــدوث الأجسام فيقول : الجسم قديم؟ لا لأن مـراده الإخبـار عن قــدم الأجســام ، بل لأنه يفرضــها قديمة ليظهر ما يــؤدي ذلك الفرض إليه من الفسـاد. فكـذا هاهنا فـرض ثم عقبه بما يدل على فساده وهو قوله (**لاۤ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ**).

ومنهم من قـــال : تكلم بـــذلك بعد فراغه من النظر وصيرورته موقنا باللّه ، ثم اختلفوا فيه على وجــوه خمسة فقيل : تكلم بذلك على معنى أن الأمر كـذلك عنـدهم كما يقــول أحــدنا للمشــبه على ســبيل الإنكــار إن إلهه جسم متغـير. وقـال تعـالى : (**وَٱنْظُـرْ إِلىٰ إِلٰهِـكَ**) [1] أي في زعمك.

وقيل : المـراد منه الاسـتفهام ، إلا أنه أسـقط حـرف الاســتفهام اســتغناء عنــه. وقيل : في الآية اختصـــار ، وتقديره يقولون هـذا ربي ونظـيره (**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْـرٰاهِيمُ ٱلْقَوٰاعِـدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْـمٰاعِيلُ رَبَّنٰا**) [2] أي ويقــولان. وقيل : أراد إبراهيم أن يبطل قولهم بتعظيم الكواكب.

فـــــأوهم من نفسه أنه يعظمها ، ثم عقبه بــــــذكر الاســـتدلال على بطلانه وقيل : إنهم دعـــوه إلى عبـــادة النجوم فقال مبينا لهم خطأهم (هذا ربي) الذي تدعونني إلى عبادته.

والأصح من هذه الأقوال [3] أن ذلك على وجه الاعتبـار والاستدلال لا على وجه الاخبار ولذلك فـإن اللّه تعـالى لم يــدم إبــراهيم عليه الســلام على ذلك بل ذكــره بالمــدح والتعظيم وأنه أراه ذلك كي يكون من الموقنين.

هذا هو البحث المشهور في الآية.

---

1 ـ سورة طه الآية 97.
2 ـ سورة البقرة الآية 127.
3 ـ وقد أفاض المؤلف في ذكر هذه الاقـوال في تفسـيره فلينظر 4 / 78.

وفيها أبحـاث أخر من حيث أن بعض الملاحـدة قـال : إن إبـراهيم اسـتدل على الشـيء بما لا يـدل عليـه. وذكر أشــياء لا تصح ، فكــان الطعن متوجها ، ونحن نــذكر كل واحد من تلك الأسئلة الأربعة عشرة مع جوابه.

(السـؤال الأول) قوله تعـالى : (**فَلَمّا جَنَّ عَلَيْـهِ اَللَّيْـلُ رَأىٰ كَوْكَبـاً**) [1] دلت الآية على أنه نظر في حـال الكـواكب أولا ، ثم القمر ثانيا ، وفي حـال الشـمس ثالثا ، ولا شك أن تلك الليلة مسبوقة بنهار ، وأنه كانت الشمس طالعة ، فلم لم ينظر في النهـار السـابق على تلك الليلة في حال الشمس ، بل كان ذلك أولى لأن الشمس أعظم من القمر والكـــواكب ومـــتى ثبت أن الأعظم لا يصـــلح للآلهية فالأضعف أولى؟

(جوابه) أن أم إبـــراهيم لخوفها عليه وضـــعته في كهف مظلم فلما تثبت وعقل دنا من الباب فرأى الكوكب ، فقد خطر بباله إثبات الصانع فقال ما قـال [2] وقيل : إنه كـان لا يشـار له إلى معبـود ثم أشـير إلى الكـواكب فعند ذلك قال ما قال اعتبارا.

---

1 ـ سورة الانعام الآية 76.

2 ـ قال أبو محمد بن حزم : وأما قول ابراهيم اذ رأى الشـمس والقمر (هذا ربي) فقال قوم ان ابراهيم قال ذلك محققا أول خروجه من الغار وهذا خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال. ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز والتكليف بمثل هذا وهو لم ير قط شمسا ولا قمـرا ولا كوكبا. وقد أكذب اللّه هذا الظن الكـاذب بقوله الصـادق (وَلَقَـدْ آتَيْنٰا إِبْرٰاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنّٰا بِهِ عٰالِمِينَ) ـ الى أن قـال ـ والصـحيح من ذلك انه انما قـال ذلك موبخا لقومه كما قـال لهم نحو ذلك في الكبـير من الاصنام ولا فرق ـ الى أن قال : وبرهان قولنا هذا أن اللّه تعالى لم يعاتبه على شيء مما ذكر ولا عنفه على ذلك بل صدقه تعالى بقوله : (**وَتِلْكَ حُجَّتُنٰا آتَيْنٰاهٰا إِبْرٰاهِيمَ عَلىٰ قَوْمِهِ نَرْفَـعُ دَرَجٰـاتٍ مَنْ نَشٰـاءُ**) فصح أن هذا بخلاف ما وقع لآدم وغيره بل وافق مراد اللّه.

(السؤال الثاني) حـدوث الكـوكب معلـوم بحركته ، فإنه لما تحــرك ثبت أنه لا ينفك عن الحــوادث ، فيكــون محدثا فكان ينبغي أن يحتج عند طلوعه على حدوثه ، وأن لا يتوقف على أفوله.

(جوابه) المراد بالأفول الهوى في حظيرة الإمكان ، فــإن حركته تــدل على كونه ممكنا لذاته ، والممكن لذاته معدوم لذاته موجـود لغـيره ، وذلك هو الأفـول الحقيقي ، وأيضا فلأنه وإن كـــان لا يختلف الحـــال بين الطلـــوع والغـــروب في الحقيقة إلا أن الغـــروب أدل على عـــدم الإلهية عند العوام فلعله عدل إلى الأفول لهذا الغرض [1].

(الســؤال الثــالث) أنه لما علم أن حركة الكــوكب منتهية إلى الأفول وعلم أن الأفول يـدل على الحـدوث ثم رأى الشــمس والقمر متحــركين ، فكــان ينبغي أن يقطع عليهما بالحدوث قبل أفولهما ، فلم وقت الأمر فيهما أيضا على الأفول؟

(جوابه) أما إن حملنا الأفول على الهوى في مغرب الإمكان فقد انـدفع الإشـكال ، وإن حملنـاه على رعاية ما هو أظهر للعوام فكذلك.

(الســـؤال الرابع) كيف قطع بغيبة الكـــوكب على حركته ، مع أن المحتمل أن يقــال الســماء واقفة والأرض متحركة؟

(جوابه) غيبة الكوكب تقتضي حركة جسم ما فيلزم حدوث ذلك الجسم فيلزم حـدوث كل جسم لأن الأجسـام كلها متماثلة.

---

1 ـ يقول المؤلف في تفسيره 4 / 80 : ان الأفول أدل على المقصود لانه يعـني زوال السـلطان. ويـرى أن الدلالة بـالأفول من أحسن الكلام الذي يفهمه الخواص والاوساط والعوام. فالخواص يفهمون من الأفــول الإمكــان وكل ممكن محتــاج ، والأوســاط يفهمــون من الأفــول مطلق الحركة وكل متحــرك محــدث ، والعــوام يفهمــون من الأفــول ذهــاب السلطان مما لا يصلح للإلهية.

(السـؤال الخـامس) : هب أنه اسـتدل بحركة على حدوثه فكان ينبغي أن يقول عقيب فراغه من النظر : إني قضـــيت بحدوثه لكنه لم يفعل ذلك ، بل جعله نتيجة دليل إثبات الصانع ، فأين إحدى المسألتين من الأخرى؟

(جوابه) : هذا تنبيه على أن العلم باحتياج المحـدث إلى المحدث ضروري ، فلما كانت هذه المقدمة ضــرورية لا جرم حذفها ، واستدل بالدليل الدال على حدوث العـالم على ثبـوت الصـانع ولو لم تكن تلك المقدمة بديهية لكـان هذا الاستدلال خطأ قطعا.

(السـؤال السـادس) : هب أنه ثبت لإبـراهيم عليه السلام بالدلالة التي ذكرها حدوث الأجسام وثبوت الصـانع ، ولكن كيف استنتج منها فساد قوله : (هذا ربي) فإن من المحتمل أن الكـــواكب والســـموات محدثة مخلوقة للّه تعالى ، ثم إنها تكون محدثة للبشر ، ولما في هـذا العـالم على ما يذهب إليه المعللون بالوسـائط. فـإن قلت : كـان غرضه من هـذا الاسـتدلال معرفته مقطع الحاجـات ، فلما عـــرف أن الســـموات محدثة عـــرف أنها ليست مقطع الحاجـات. قلت : ليس الأمر كـذلك ، لأن أول الاسـتدلال في قوله : (هـذا ربي) فكـان مطلوبه أن الكـوكب هل هو الشيء الذي يربيني ويخلقني؟ فكان المطلـوب هـذا لا ما ذكرته ، وأيضا بتقدير أن يكون الأمر كـذلك ، فلم قـال : (**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّـمٰاوٰاتِ وَاَلْأَرْضَ**)[1] فــإن بتقــدير أن يكــون خالقه هو الســماء وجب عليه الاشتغال بشكره والإقبال على طاعته.

(جوابه) : أن إبراهيم عليه السلام كان على مذهبنا[2] في مسألة

1 ـ سورة الأنعام آية 79.
2 ـ أي في رأي المعتزلة.

خلق الأفعال؛ فإنه لما عرف أنها محدثة عـرف أنما ممكنة وكـان من المعلـوم أن المصـحح لمقدورية اللّه تعـالى هو الإمكـان ، فعـرف أن كل ممكن مقـدور للّه تعـالى فإنه لا يقع بقدرة غيره فعرف أن كل ممكن خرج من العـدم إلى الوجــــود فلم يخــــرج إلا به فعلم أن خالقه ومربيه ليس الفلك ولا الملك بل هو اللّه الواحد القهار [1].

(السؤال السابع) : كيف عـرف أنه فطر السـموات فـــإن بقي هاهنا احتمـــال آخر وهو أن الجسم وإن كـــان محدثا إلا أن هيولاه قديمة. وعلى هذا التقدير لا يكــون هو تعـالى فاطرهـا. ودليل الحركة لا يفيد إلا حــدوث الجسم من حيث أنه جسم فأما حــدوث الهيـولي الــتي هي جــزء ماهية الجسم فلا.

(وجوابه) : لما عرف حدوث الجسم عرف لا محالة حدوث هيولاه لأن هيولاه لو كانت قديمة لكـانت في الأزل قابلة للصــــــــــورة ، لأن قابليتها لها لازمة لماهيتها ، ولو حصلت القابلية في الأزل لكان المقبـول صـحيح الوجـود ، لأن القابلية نســبية وإمكــان النسب متوقف على إمكــان المنتسبين لكن المقبول لما كـان ممتنع الوجـود في الأزل فكـانت القابلية كـذلك فكـان القابل كـذلك ، فكـان الكل كذلك.

(السؤال الثامن) : كلمة (الذي) موضوعة لتعريف المفـرد بقضـية معلومة فيما قبل وكونه فـاطر السـموات والأرض لم يكن معلوما قبل ذلك إنما صــار معلوما له في تلك الحالة فكيف قال (للذي فطر السموات).

(جوابه) : أنه لما عرف أن العـالم محـدث انضـمت إليه مقدمة أخرى ضرورية وهي أن كل محدث له محــدث ، فتولد منهما بأن

---

1 ـ للمؤلف اشارات لطيفة في الـرد على هـذا الموضـوع في تفسـيره فلينظر / 81.

العالم له صانع فصار علمه بافتقار العالم إلى الصانع علما جليا خاليا عن الشبهات ثم لما عرف وجود الصانع عرف أنه لا بد من القيام بشكره والاشتغال بطاعته ، فقال بعد ذلك (**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَاَلْأَرْضَ**) فكان المعنى : وجهت وجهي إلى ذلك الشيء [1] الذي ظهر في عقلي كونه فاطر السموات والأرض.

(السؤال التاسع) : أنه لم يحتج إلا بحركة الكوكب على حدوثه فمن أين حكم بذلك على السموات والأرض بالحدوث ، والحاجة إلى المحدث؟

(جوابه) : لما ثبت أن جسما ما محدث فكل جسم محدث لأن الأجسام كلها مماثلة ، وحكم الشيء حكم مثله ، وفي هذا الموضع تنبيه على أنه تعالى ليس بجسم من وجهين (الأول) أنه لما ثبت حدوث جسم فرع على تلك الدلالة حدوث جسم آخر ، وذلك إنما يصح إذا كانت الأجسام كلها متماثلة وذلك ينفي كونه تعالى جسما. (الثاني) أنه تعالى لو كان جسما لقال وجهت وجهي إلى الذي ، فلما قال (للذي) ولم يقل إلى الذي ، دل ذلك على أنه تعالى ليس بجسم.

(السؤال العاشر) : لم قال (**وَمٰا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ**) وأي دلالة في حدوث الأجسام على نفي الشرك ، والظاهر أنه لا يجوز أن يرتب على الدليل ما لا يكون لازما منه.

(جوابه) : لما عرف حدوث الأجسام عرف أنّ محدثه قادر. وعرف

---

1 ـ التعبير بالشيء هنا في غاية الجفاء والسماجة ، وما ذا كان عليه لو قال ـ الى اللّه الذي ـ والذي جره الى هذا التعبير : انسياقه في هذا الحديث الذي لا قيمة له في اثبات عقيدة ولا لزوم له في تنزيه ابراهيم عليه السلام وكم جرت هذه البحوث المتكلفة الى فساد في التفكير وأبعدت عن هدى أصدق المؤمنين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه وتابعيهم.

أنه إنما صح منه أن يقدر على مقدور لكون ذلك المقـدور ممكنا ، فعـــرف أن الإمكـــان هو المصـــحح للمقدورية ، فعــرف أنه لو وجد لها آلهــان لقــدر كل واحد منهما على عين مقـــدور الآخر لكنه محـــال ، لما أنه يقتضي وقـــوع مقدور من قـادرين من جهة واحـدة هو محـال ، لأنه يلـزم استغناؤه بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، ولما كـان ذلك باطلا كان القول بحـدوث الأجسـام نافيا للشـرك من هــذا الوجــه. وهــذه هي الأدلة الدالة على التوحيد ونفي الأضداد والأنـداد في الـذات والصـفات والأفعـال وهو اللّه تعــالى واحد في ذاته لا شــريك له وواحد في صــفاته لا نظير له وواحد في الحلق والإيجاد لا شبيه له.

(السؤال الحادي عشر) : (**فَلَمّا جَنَّ عَلَيْهِ اَللَّيْلُ**) ابتدأ أولا بالنظر في الكواكب ، فلم لم يبتـدئ بـالنظر في نفسه ثم في أحوال هذا العالم من العناصر؟

(جوابه) : الدليل الـدال على حـدوث الكـواكب دال على حـدوث العناصر ولا ينعكس فكـان الاشـتغال بـالأعم أهم.

(السؤال الثـاني عشر) : هب أنه عـرف أن للعـالم صانعا. ولكن لم اشـتغل بعبادته في الحـال فقـال : (**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَاَلْأَرْضَ**).

(جوابه) : من قـــال شـــكر المنعم واجب عقلا فلا إشـــكال عليه ومن لم يقل به حمل الآية على العلم دون العمل. وفيه إشكال لأن العلم أيضا عمل فقبل الســمع أو لم يجز العمل لما جاز لإبراهيم هذا العمل.

(السـؤال الثـالث عشر) لم قـال : (وجهت وجهي للذي) ولم يقل وجهت قلبي ، مع أنه أولى.

(جوابه) هـذا يـدل على أن الاعتقـاد لا بـدّ معه في تزكية الروح

من العمل لأن الاعتقاد أرواح والأعمال قـوالب ، والكمـال لا يحصل إلا باجتماعهما وباللّه التوفيق.

(السـؤال الرابع عشر) : لم قـدم السـموات على الأرض؟

(جوابه) : إن الاسـتدلال كـان أولا على الكـواكب والمجانسة بينها وبين الأفلاك أشد ، ثم بينها وبين العناصر ، فلـذلك قـدم السـموات لأنها أشـرف وأقـوى وأعظم فأشكالها أشـرف الأشـكال وهو المسـتدير وألوانها أحسن الألـوان وهو المسـتنير فأجسـامها أصـلب الأجسـام فإنها السبع الشداد ، وهي محل البركات : ومنها تنزل الخـيرات فلما فاقت السفليات في هذه الصفات قدمها في الذكر.

(الشبهة الثانية) تمسكوا بقول اللّه تعالى مخبرا عن إبراهيم لما قـال له قومه : (**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰـذٰا بِآلِهَتِنٰا يٰا إِبْرٰاهِيمُ؟ قٰالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰـذٰا**) [1] وإنما عـنى بالكبير الصنم وهذا كذب لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي كسر الأصنام فإضافة كسرها إلى غـيره لا يكـون إلا كذبا.

(الجواب) : من وجوه [2].

(الأول) أنه كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله. و (**كَبِـيرُهُمْ هٰـذٰا**) ابتـداء كلام. وروى عن الكسـائي أنه كـان يقف عند قوله تعـالى (**بَـلْ فَعَلَـهُ**) ثم يبتـدئ (**كَبِيرُهُمْ هٰذٰا**).

(الثـاني) أنه يجـوز أن يكـون فيه وقف عند قوله تعالى (**كَبِيرُهُمْ**

---

1 ـ سورة الأنبياء الآية 62 ـ 63.

2 ـ ذكر المؤلف في تفسيره جوابا كـان الاولى لو قاله هنا مفـاده : لم يقصد ابـراهيم أن ينسب الفعل الصـادر عنه الى الصـنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم 6 / 129.

هٰذٰا فَسْئَلُوهُمْ) والمعـنى بل فعله كبـيرهم وعـنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم.

(الثالث) أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال : بل كبـيرهم هـذا إن كـانوا ينطقـون فاسـألوهم فيكـون إضـافة الفعل إلى كبـيرهم مشـروطة بكـونهم نـاطقين ، فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين.

(الرابع) أنه ذكر إلزاما على قـولهم ، لأنه لما كـان هو الإله الأكـبر فكسر خدمه المقـربين لديه لا يصـدر إلا عنه.

(الخامس) قرأ بعضهم (فعلّه كبيرهم هذا) أي فلعله ، وعلى هذا لا يكون كذبا لدخول حرف الشك [1].

(الشـبهة الثالثة) قوله تعـالى مخـبرا عن إبـراهيم (**فَنَظَـرَ نَظْـرَةً فِي اَلنُّجُـومِ فَقٰـالَ إِنِّي سَـقِيمٌ**) [2] والاسـتدلال من وجهين : (الأول) تمسك بعلم النجـوم وهو غير لازم (الثاني) قوله (إِنِّي سَقِيمٌ) وهو كذب.

(الجـواب) قيل : أراد بنظـره في النجـوم والقمر والشـمس حـال كونه طالبا لمعرفة اللّه تعـالى. وقوله : (إِنِّي سَقِيمٌ) أي لست على يقين من الأمر. ثم لما استدل بأفولها وغروبها على حـدوثها وعـرف اللّه تعـالى زال ذلك الشـك. وهـذا ضـعيف لأن اللّه تعـالى قـال : (**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرٰاهِيمَ إِذْ جٰاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مٰا ذٰا تَعْبُدُونَ**) [3]

---

1 ـ قال الامام أبو محمد بن حزم : انما هو تقريع لهم وتوبيخ ، كما قال تعالى : (**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيـزُ اَلْكَـرِيمُ**) وهو في الحقيقة مهـان ذليل معذب في النار فكلا القولين تـوبيخ ظن قبلا له على ظنهم أن الأصـنام تفعل الخـير والشر وعلى ظن المعـذب في نفسه في الـدنيا انه كـريم عزيز. ولم يقل ابراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله. اذ الكذب انما هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه قصدا الى تحقيق ذلك.

2 ـ سورة الصافات الآية 88 ـ 89.

3 ـ سورة الصافات الآية 83 ـ 85.

فدل ظـاهر الآية على سـلامة قلبه من الشـك. ثم ذكر أنه عاتب قومه على عبادة الأصنام. فقـال (**مٰا ذٰا تَعْبُـدُونَ**) وسمى عبادتهم بأنها إفك وباطل. قال (**فَمٰا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ**) وهذا قول عارف باللّه تعالى.

فالمعتمد أن يقـول في الجـواب عن الوجه الأول : لا نسـلم أن النظر في النجـوم حـرام ، وذلك لأن من اعتقد أن اللّه تعـالى أجـرى العـادة أنه مهما حـدث فيما بينهما اتصـال مخصـوص خلق في هـذا العـالم حادثا مخصوصا واعتقد أن اللّه تعـــالى خلق فيها قـــوى وجعلها أســـبابا لحـدوث الحـوادث في هـذا العـالم فعلى هـذا التقـدير لا نسـلم أن النظر في النجـوم حـرام سـلمنا كونه حراما ، ولكن لعل اللّه أخـبر إبـراهيم عليه السـلام بأنه مهما طلع النجم الفلاني فإنك تمرض. فنظر في النجـوم فلما مـرّ به قال إني سقيم.

ســـلمنا أن ذلك أيضا لم يكن ، لكن من المحتمل أنه حين نظر في النجوم تشبها بأهل زمانه في الظاهر وحكم أنه سقيم إيهاما على قومه أنه اسـتدل على ذلك بـالنجوم وإن كان الأمر في نفسه ليس كذلك.

(وأما الوجه الثاني) : فـالجواب عنه لا نسـلم أنه ما كـان سـقيما في تلك السـاعة الآتية : كما إذا علمت أنك ستصـير محموما وقت الظهر ثم إن واحــدا يــدعوك إلى الضيافة بحيث تعلم أنه لا بد من الجلوس مع القــوم وقت الظهر فتقول إني محمـوم ، وتعـني به أني أكـون محموما في ذلك الوقت وأيضا لعله لما كـان مشـرفا على السـقم ســمى نفسه ســقيما كما في قوله تعــالى (**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـونَ**) [1] وأيضا أراد إني سـقيم القلب والمـراد ما في قلبه من الحزن والغم بسبب كفرهم وعنادهم.

فـــإن قلت : روى عن رســـول اللّه صـــلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كـذبات ، قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم

1 ـ سورة الزمر الآية 30.

هذا ، وقوله لسارة : إنها أختي » [1] قلت : هذا من أخبـار الآحـاد فلا يعـارض الـدليل القطعي الـذي ذكرنـاه ، ثم إن صح حمل على ما يكون ظاهره الكذب. فأما قوله لســارة : « إنها أختي » فمعناه أنها أختي في الدين ، أو نظرا إلى انتسابهما إلى آدم أو إلى سائر الأجداد.

(الشبهة الرابعة) تمسـكوا بقوله تعـالى : (**أَلَمْ تَـرَ إِلَى اَلَّذِي حَـاجَّ إِبْـرَاهِيمَ**) [2] الآية انتقل من دليل إلى دليل. وهذا يدل على عجزه عن نصـره دليله الأول. وأيضا فكـان من الـواجب عليه دفع ذلك السـؤال وإزالة تلك الشبهة فكان الإعراض عنه ذنبا عظيما.

(والجواب) : أن الـدليل واحد لم ينتقل إلى غـيره ، ولكن انتقل من مثـال إلى مثـال آخر لعلمه بقصـور فهم المخـاطب عن إدراكه المقصـود من المثـال الأول. وذلك لأن إبراهيم عليه السلام اسـتدل بحـدوث حـادث يعلم كل أحد عاقل بالضـرورة عجز البشر عنـه؛ وذلك يفيد العلم بوجود الإله تعالى. وهـذه القضـية الكلية لها جزئيـات منها الاحياء والإماتة ، ثم إن نمروذ دعا بـرجلين فقتل أحـدهما ولم يقتل الآخـر. فقـال عند ذلك : (**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**) وكان إبراهيم قادرا على أن يقول : لست أعني به الإحيـاء والإماتة بهذا التفسـير ، وإنما المـراد منه شـيء آخر لعلم كل أحد بالضـرورة عجز البشر عنه ، إلا أنه عليه السـلام مبالغة في الإيضـاح عـدل عن ذلك المثـال إلى آخر وهو طلوع الشمس وغروبها. فظهر أنه لم يحصل منه الانتقال من الاسـتدلال إلى الاسـتدلال بل من المثـال إلى مثـال آخر.

ثم هاهنا بحث وهو أن الغرض من هـذا الاسـتدلال إما إثبـات الإله للعـالم ونفي كـون نمـروذ إلها ، أو نفي كونه شريكا للّه تعالى. فإن كان

---

1 ـ الحـديث رواه البخـاري ومسـلم والامـام أحمد وأبو داود والترمـذي عن أبي هريرة.
2 ـ سورة البقرة الآية 258.

الأول وهو قوله : (**فَــإِنَّ اَللّــهَ يَــأْتِي بِالشَّــمْسِ مِنَ اَلْمَشْرِقِ**) فـإن ذلك عين المطلـوب ، وله أن يقـول : إن الشمس تطلع إما لذاتها أولا لمـؤثر أصلا فما الـدليل على أن الأمر ليس كذلك؟ فإن البحث ما وقع إلا فيه.

وإن كان الغرض هو الثاني وهو أن نمروذ ليس بخالق للعـالم فهـذا غـير جـائز لأن نمـروذ إن جـوز ذلك لم يكن كامل العقل ، لأن العلم بأن هذا الشـخص البشـري الـذي ما وجد إلا في هــذه الأيــام ليس هو الموجد للســماوات السبع التي كانت موجودة قبله بألوف ألـوف سـنين ، وأن العلم بـأن هـذا الشـخص العـاجز عن التصـرف في هـذه الســموات والكــواكب والــبر والبحر ليس هو الموجد لها علم ضـــــــروري ، فمن شك فيها كــــــان مختل العقل ، والمناظرة مع هذا الإنسـان عبث ، وبعثة الأنبيـاء إليه أيضا عبث.

وإن كـان الغـرض هو الثـالث ، وهو نفي كونه شـريكا للّه تعــالى ، فــإن كــان المــراد من الشــركة في خالقية الســموات والأرض كـان أيضا معلـوم الفسـاد بالضـرورة فكانت المناظرة فيها عبثا : وإن كان المـراد من الشـركة الطاعة بمعــنى أن نمــروذ كــان يــدعي أنه يجب عليهم طاعته كما يجب طاعة اللّــه. فهــذا مما لا يبطل بالحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام.

(سؤال آخر) وهو أن إبراهيم عليه السلام لما قال (**فَإِنَّ اَللّهَ يَـأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ اَلْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهٰا مِنَ اَلْمَغْــرِبِ**) فلو قــال الخصم : بل أنا آتي بالشــمس من المشــرق فقل لإلهك جئ بها من المغــرب كيف يكــون جوابه؟

(الجــواب) عن البحث الأول أن الخصم كـان دهريا منكرا للصانع فاحتج إبراهيم عليه السلام بهـذه الحجة في إثبات الصانع وذلك لأن طلوع الشمس بعد عـدمها حـادث فلا بد من محـدث والمحـدث ليس أحـدا من البشر فلا بد لهذه الأجسام من إله.

(واعلم) أنه إنما انتقل عن الإحيـــاء والإماتة إلى طلوع الشمس

وغروبها لأن أشـرف ما في العـالم السـفلي هو الإنسـان وأشـرف ما في العـالم العلـوي هو الشـمس ، فـذكر من دلائل الآفاق أحوال الشـمس ، ومن دلائل الأنفس أحـوال الحياة والموت.

(والجـواب) عن البحث الثـاني أن الخصم لو طالبه بـذلك لكـان من الـواجب في حكم اللّه تعـالى أن يـأتي بالشمس من المغرب تقريرا لحجة إبراهيم عليه السلام.

ولقائل أن يقول : هذا غـير واجب. لأن لإبـراهيم عليه السلام أن يقـول : طلـوع الشـمس حـادث ، فلا بد له من محـدث. وذلك المحـدث ليس من البشر ، فلا بد من آلـه. فثبت أن طلـوع الشـمس إنما حـدث بقـدرة اللّه تعـالى. ومن المعلوم بالضـرورة أن القـادر على تحريك الشـمس من اليمين إلى الشـمال قـادر على تحريكها من الشـمال إلى اليمين. فلما كـان اللّه تعـالى قـادرا على أن يـأتي بالشمس من المشرق كـان قـادرا على أن يـأتي بها أيضا من المغـرب. فثبت أن إلهي قـادر على الكـل. وأما أنت فلو كنت إلها لكنت أيضا قادرا على الكل فلما عجزت عن الكل ثبت أنك لست بإله. ومـتى انـدفعت معارضة الخصم بهـذه الأدلة العقلية لم يلـزم من عـدم إتيـان اللّه تعـالى بالشـمس من المغـرب القـدح في دليل إبـراهيم عليه السلام.

(الشبهة الخامسة) تمسكوا بقوله تعـالى (**إِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِ الْمَـوْتىٰ**) [1] الآية وهـذا يـدل على انه لم يكن موقنا بقـدرة اللّه على إحيـاء الأموات.

(والجواب) من وجوه :

(الأول) يحتمل أن يقـال : وقع ذلك قبل النبـوة. وقبلها لما وجب

1 ـ سورة البقرة الآية 260.

عليه الاســـــتدلال في معرفة اللّه تعــــالى وجب عليه الاسـتدلال أيضا في أمر المعـاد. فـإن قلت : أليس إنه لا يتم علمه بالمبـدإ إلا إذا عرفه قـادرا على كل المقـدورات حصل العلم بكونه عالما بكل المعلومــات ، ومــتى عرفه كذلك عرفه قادرا على إحياء المـوتى؟ قلت : لا يلـزم من مجرد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات قادرا على كل المقــدورات حصــول العلم بكونه تعــالى قــادرا على الإحياء لاحتمال أن يقال : هذه الأجزاء إنما تقبل الــتركيب الحيواني والحياة بطريق خاص وهو التولد. فأما بغـير ذلك الطريق فهو ممتنع لذاته. فلا يلـزم من عـدم القـدرة عليه قدح في قولنا أنه قادر على كل الممكنات.

فـإن قلت : لو كـان حصـول الحيـاة في ذلك الجسم ممتنعا لما حصل فيه البتة ، فلما حصل ثبت أنه ممكن لذاته فيندرج تحت قدرة اللّه تعالى.

(قلت) لعل الخصم يقول : إنه ممكن بطريق واحد ، وفيما عدا ذلك ممتنع ، وأيضا فهب أن الدليل الذي ذكرت يصح في بيـان كـون الأجـزاء قابلة للحيـاة إلا أن إبـراهيم عليه الســلام ما أراد إثبــات هــذه المقدمة بهــذه الدلالة العقلية بل أراد إثباتها بالمشــــــاهدة ، فإنه لا يجب على المستدل أن يستدل بدليل معين ، كيف وفي الرجـوع إلى المشـاهدة هاهنا مزيد فائـدة لأن الحسى أقـوى في ذلك من الاستدلال.

(الثــاني) يحتمل أن يقــال : وقع ذلك عند وصــول الوحي إليه ، فـإن القـوم كما يحتـاجون إلى المعجـزة في معرفة رسالته ، فالرسول لا بد له أيضا من معجز ليعـرف به نبـوة نفسه ، فقوله (أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ) معنـاه أو لم تـؤمن بأنك رســول اللّــه؟ (**قٰـالَ بَلىٰ وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) على كوني رسولا من قبلك لا من قبل الشيطان.

(الثالث) يحتمل أن يقال : وقع ذلك بعد النبوة ولكنه من اللّه تعالى

لمعرفة شيء آخر ، كما يحكى أن اللّه تعالى أوحى إليه « إني اتخــذت عبــدا من عبــادي خليلا وعلامته أنه لو طلب مني إحيـاء الميت فـإني أفعله إكراما له » فـأراد إبـراهيم عليه السلام أن يتعرف أن ذلك الخليل هل هو هو؟ فسأل عن ذلك ، وكان المعـنى ولكن ليطمئن قلـبي على كـوني خليلا لك ومخصوصا من عندك بهذا الشرف.

(الرابع) أن يكون المـراد ليطمئن قلـبي على قربك على الإحياء بالمشاهدة ، فإن البرهان إذا تأيد بالمشـاهدة صار أقوى وأعم.

(الخــامس) أنه عليه الســلام لما أمر بــذبح الولد ضــعف قلبه ، فكأنه قــال إلهي أمرتــني بإماتة الحي وهو عليّ شاق ، فإن أكرمتني بإحياء الميت قوي قلـبي فأقـدر حينئذ على ذلك التكليف ، فقوله : (**وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) المراد ليطمئن قلبي على قربي منك واختصاصي بك فأقوى بوجدان ذلك الإكرام على امتثال ذلك الالتزام.

(الســادس) : أن الخصم لما قــال لإبــراهيم عليه السلام : أنت تزعم أن ربك يحيي ويميت فاسأله أن يحيي لنا ميتا وإلا قتلتــك. فقــال إبــراهيم عليه الســلام : (أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتىٰ) ويكون معـنى قوله : (**وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) زوال الخوف والأمن من القتل.

(السابع) : أن الخصم لما قال : (**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**) لم يشتغل إبـراهيم عليه السـلام بالكشف عن فسـاد ما قاله ، ولكن انتقل إلى وجه آخر ثم بعد الفـــراغ عن ذلك المقصود عاد إلى شرح فساد ما قاله الخصم :

فقــال : (**رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِي ٱلْمَـوْتىٰ**) ليعـرف بهذا الكافر أن الإحياء والإماتة اللذين اسـتدللت بهما على وجــود الإله كيف يكــون؟ فمعــنى قوله : (**لِيَطْمَئِنَّ**) أي يطمئن قلبي على صحة الدليل واندفاع تلك المعارضة.

(الثـامن) وهو على لسـان أهل الإشـارة : أن حيـاة القلب بالاشـتغال بـذكر اللّه وموته بالاشـتغال بغـير اللّه تعـالى. فقـال : (رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِ اَلْمَـوْتىٰ) أي القلـوب الميتة (قٰـالَ أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قٰـالَ بَلىٰ) ولكن ليحصل الـذوق بتحصـيل الاسـتقرار والطمأنينـة. فقـال (فَخُـذْ أَرْبَعَـةً مِنَ اَلطَّيْـرِ) فـأمر بقطع العلاقة عن هـذه الهيئة المركبة من هـــذه الطبـــائع الأربعة تنبيها على أن الحيـــــاة التامة الروحانية لا تحصل إلا بعد مقارنة هـــــذا الجسد.

(التاسع) : أن المـراد منه طلب الرؤية في الـدنيا ، وهو الذي سأل موسى عليه السلام بقوله : (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْـكَ) وسـأله محمد أرنا الأشـياء كما هو [1] إلاّ أنه راعى الأدب فعبر بالمسبب عن السبب فـإن سـبب حيـاة القلب ليس إلا الرؤية التي هي الكشف التام ، فكـان طلب الأثر طلبا للمؤثر.

(العاشر) : أنه عليه السـلام كـان أب هـذه الأمة والوالد يكون مشفقا على الولد ، والمشـفق بسـوء الظن مولـع. فلما علم أن كـثرة بنيه عاصـيا خطر بباله : إني إن كنت شـفيعا للعصـاة فهل تقبل شـفاعتي يـوم القيامة ، فسـأل عن إحيـاء الميت في الـدنيا فقيل : أو لم تـؤمن بقدرتنا عليه؟ فقال : بلى ولكن ليطمئن قلبي على كـوني مقبول الشفاعة في حق أمة محمد عليه الصلاة والسـلام ، وإذا كان هو كذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام أولى به ، فلذلك قال : « شفاعتي لأهل الكبـائر من أمـتي » [2] وهذا الجواب تذكيري.

(الحـــادي عشر) : لعله عليه الســـلام أمر بتبليغ الرسالة ففكر فقال :

---

1 ـ الظاهر انه ساقه على انه حديث. وقد بحثت عنه كثيرا وسـألت من أعرف استحضاره للاحاديث فلم أعثر عليه لا في الضعيف ولا الموضوع ، ويظهر لي واللّه أعلم أنه ليس بحـــــــديث ، وليس عليه طلاوة كلام النبوة.

2 ـ هـذا الحـديث رواه الامـام أحمد وأبو داود والترمـذي والنسـائي عن أنس وعن ابن عباس.

لعل الخصــوم يطــالبونني. بمعجــزات غريبة فســأل اللّه تعالى عن هذه الغريبة.

فقال (**أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلىٰ وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) على أنك تجيبـــــني في كل ما أطلب. وبالجملة قوله (**وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) غــير متعلق في الآية على شــيء معين فلك أن تصرفه إلى أي شيء شئت سوى الإيمان.

(الشبهة السادسة) قالوا : إن إبراهيم عليه السـلام استغفر لأبيه.

وأبوه كان كافرا والاستغفار للكـافر غـير جـائز. فثبت أن إبـراهيم عليه السـلام فعل ما لا يجـوز فعله إنما قلنا : إنما اســتغفر لأبيه لقوله تعــالى حكاية عن إبـــراهيم عليه السلام (**سَلاٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**) [1] وقوله : (**وَاِغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كٰانَ مِنَ اَلضّٰالِّينَ**) [2] وأما إن أباه كان كـافرا فـذلك بنص القـرآن وبالإجمـاع. وأما أن الاسـتغفار للكـافر لا يجـوز لـوجهين (الأول) قوله تعـالى (**مٰا كٰـانَ لِلنَّبِيِّ وَاَلَّذِينَ آمَنُــوا أَنْ يَسْــتَغْفِرُوا لِلْمُشْــرِكِينَ**) [3] فثبت بهذه المقـدمات أن إبـراهيم عليه السـلام فعل ما لا يجــوز (الثـاني) قوله تعـالى في ســورة الممتحنة (**قَـدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـرٰاهِيمَ وَاَلَّذِينَ مَعَـهُ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمّٰا تَعْبُــدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَبَـدٰا بَيْنَنٰا وَبَيْنَكُمُ اَلْعَـدٰاوَةُ وَاَلْبَغْضٰـاءُ أَبَداً حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ إِلاّٰ قَـوْلَ إِبْـرٰاهِيمَ لِأَبِيـهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَـكَ**) [4] فـأمر بالتأسي به إلا في هـذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه.

(والجواب) لا نزاع إلا في قولكم الاستغفار لا يجوز. والكلام عليه من وجوه :

---

1 ـ سورة مريم الآية 47.
2 ـ سورة الشعراء الآية 86.
3 ـ سورة التوبة الآية 113.
4 ـ سورة الممتحنة الآية 4.

(الأول) أن القطع عليه أن اللّه تعالى يعذب الكـافر لا يعرف إلا بالسـمع ، فلعل إبـراهيم عليه السـلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب اللّه تعـالى الكـافر. فلا جرم استغفر لأبيه.

(الثاني) أن الاستغفار قد يكـون بمعـنى الاسـتبطاء كما في قوله تعالى (**قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّامَ اَللّهِ**) [1].

(الثالث) أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمـان ، فلما أيس من ذلك تـرك الاسـتغفار. ويدل عليه قوله تعالى (**فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَـرَّأَ مِنْــهُ**) [2] وأما قوله (**مٰا كٰـانَ لِلنَّبِيِّ وَاَلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**) [3] فليس في لفظ النبي عمـوم ، لما ثبت في أصـول الفقه أن الاسم المفـرد المحلي بـالألف واللام لا يقتضي العمـوم فـإذا حملنا النـبي على رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يلـزم أن يتنـاول إبـراهيم عليه السـلام ، وأما الآية الثانية فهي على أنه لا يجـوز التأسي به في ذلك الاسـتغفار ، فلم يـدل على أن الاستغفار لم يكن جائزا لـه. ولكنا نحمل الاسـتغفار الـذي أتى به على اسـتبطاء العقـاب أو تخفيفه ، أو على أنه ما كان عالما بكيفية الأحوال.

(فائدة) اختلف المفسرون في الموعـدة المـذكورة في قوله تعالى (**إِلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰا إِيّاهُ**) [4] فقيل : وعد الأب ابنه بالإيمان ، وقيل : وعد الابن أباه بالاستغفار. والأول أولى على قولنا إنه لا يجوز الاستغفار للكافر ، لأن وعد الابن أباه بالاستغفار لو وعد

---

1 ـ راجعت كتب اللغة وكتب التفسير ومنها تفسير الفخر الـرازي. فلم أجد هذا المعـنى للاسـتغفار أصلا ، بل كل معـنى الاسـتغفار يـدور على التغطية والعفو والصـفح خصوصا في آية الجاثية (**قُـلْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا يَغْفِرُوا** ـ 241).
2 ـ سورة التوبة الآية 114.
3 ـ سورة التوبة الآية 113.
4 ـ سورة التوبة الآية 114.

الأب ابنه بالإيمان وإذا كان وجود هـذا الوعد واجبا ووجـود الوعد الثاني غير واجب كان حمل اللفظ على الوعد الأول أولى [1].

(الشـبهة السـابعة) تمسـكوا بقوله تعـالى (**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**) [2] والـدعاء طلب وطلب الحاصل ممتنع لقوله تعالى (**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ اَلْأَصْـنَامَ**) [3] ولو لا جـــواز ذلك عليه لما طلب من اللّه ذلك ولقوله تعالى (**وَاَلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ اَلدِّينِ**) [4] والاستدلال فيه أن الآية مشعرة بأنه غير قـاطع بكونه مغفورا له ، وهي تصريح بوقوع الخطيئة منه.

(والجواب) لا نزاع بين الأمة أنه لا يجوز الكفر على الأنبيـاء بعد نبـوتهم إلا عند شـرذمة من الخـوارج [5] فلا اعتبار بخلافهم ، فكانت هذه الآيـات مؤولة بإجمـاع الأمة ، فـوجب حملها على هضم النفس وكسـرها وإظهـار الإنابة والابتهال [6].

(الشبهة الثامنة) قالوا : إنه طلب من اللّه أن يجنب أولاده عن عبـادة الأصـنام ، وما أجيب إليـه. فكـان كسـرا من منصبه.

---

1 ـ في هذا ترجيح من غير دليل ونرى أن القــول الثـاني هو الأولى لان وعد ابراهيم بالاستغفار لابيه حصل بعد أن هجره لعـدم إيمانه (**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاُهْجُـرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَـانَ بِي حَفِيًّا**) 46 ـ 47 مريم.

2 ـ سورة البقرة الآية 128.

3 ـ سورة ابراهيم الآية 35.

4 ـ سورة الشعراء الآية 82.

5 ـ وكذا لا يجوز الكفر قبل نبوتهم أيضا كما لا يخفى فتأمل.

6 ـ يرى المؤلف في تفسيره أن هذا القول ضعيف ، اما القول الصحيح برأيه فهو أن يحمل ذلك على تــرك الاولى وتــرك الاولى على الأنبيــاء جائز (6 / 414).

(الجواب) أن المفسرين حملوا هذا الدعاء على من أعلمه اللّٰه أنه يؤمن ولا يعبد الأصنام وتخصيص العام غـير بعيد.

(الشبهة التاسـعة) تمسـكوا بقوله تعـالى : (**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْـرَاهِيمَ بِالْبُشْـرَىٰ قَـالُوا سَـلَاماً قَـالَ سَـلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَـاءَ بِعِجْـلٍ حَنِيـذٍ**) [1] والبحث في الآية من وجوه :

(الأول) : أنه قـدم الطعـام إلى الملائكة مع علمه أنهم لا يأكلون.

(الثاني) : لم خافهم مع علمه بكـونهم معصـومين؟

فإن قلت : السبب في هذين أنه ما كان عالما بكونهم من الملائكة ، قلت : فلم صدقهم في ادعـاء الملائكة من غـير دليل؟

(الثـالث) : أنه تعـالى وصـفه بالمجادلـة. فقـال : (**يُجَادِلُنَا فِي قَـوْمِ لُـوطٍ**) [2] ثم قـال : (**يَا إِبْـرَاهِيمُ أَعْـرِضْ عَنْ هَـٰذَا**) [3] وهــذا يــدل على أن مجادلته مع الملائكة غير جائزة.

(والجــواب) أن ذلك لو كــان ذنبا لعــوتب عليه ولاسـتغفر إبـراهيم عليه السـلام منه كيف وقد مدحه اللّٰه تعالى على ذلك فقال : (**إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**) [4] فوصفه بهـذه الصـفات الـتي ليست وراءها منزلة في بـاب الرفعة. فكيف يجـوز تخطئته فيما جعله اللّٰه تعـالى سببا للمدح العظيم؟ وأما قوله : كيف صـدقهم في ادعـاء الملائكة من غير دليل فنقول ليس في الآية أنه صـدق من غـير دليل ، وإذا كـان كـذلك كـان الـدليل المـذكور على عصمة إبراهيم عليه السلام دليلا على أنه إنما صدقهم في

1 ـ سورة هود الآية 69.
2 ـ سورة هود الآية 74.
3 ـ سورة هود الآية 76.
4 ـ سورة هود الآية 75.

تلك الدعوى بالدليل. ويقـال أنهم دعـوا اللّه بإحيـاء العجل الذي كان ذبحه وشواه فعاد حيا ، وأما المجادلة فإنها غـير مقصودة على المخاصمة فقد تكون بمعنى المسـألة قـال اللّه تعـالى (**قَـدْ سَـمِعَ اَللّـهُ قَـوْلَ اَلَّتِي تُجٰادِلُـكَ فِي زَوْجِهٰا**) [1] يعني تسألك فكـان إبـراهيم عليه السـلام أخذ يبحث كيفية العــذاب وأنه عــام لهم أو خــاص بــالبعض ، فســمى ذلك جــدالا لما كــان فيه من المراجعة ، وقيل : معنى (تجادلنا) تسـألنا عن قـوم لـوط أن يـؤخر عـذابهم رجـاء أن يؤمنـوا فـأخبره اللّه تعـالى بـأن المصـلحة في إهلاكهم وأن كلمة العذاب حقت عليهم.

لا يقال : أما أن يقال أنه كان مأذونا أو غـير مـأذون ، فـإن كـان الثـاني كـان إقدامه عليه ذنبا لأنا نقـول لعله لم يكن مأذونا فيه شـرعا إلا أنه بحكم أن الأصل في الأشـياء الإباحة اعتقد جواز تلك المجادلة فإنه لما نهي عنه سـكت عنه.

1 ـ سورة المجادلة الآية 1.

قصة يعقوب عليه السلام

(وفيها شبه)

(الأولى) قالوا لم رجّح يعقوب عليه السـلام يوسف على إخوته في التقـــريب والمحبة مع علمه إفضـــاء ذلك الترجيح إلى الحسد والمفاسد العظيمة؟

(الجواب) من وجهين :

(الأول) لا نســـلم أنه رجح يوسف على إخوته في الإكرام ، بل كان راجحا في المحبة وميل الطبع وذلك غير مقدور له فلا يكون مكلفا بتركه.

(الثـاني) هب أنه عليه السـلام رجحه في الإكـرام لكن لا نسـلم علمه بـأداء ذلك الـترجيح إلى المفسـدة ، فلعله رأى من سداد إخوته وجميل ظـاهرهم ما غلب على ظنه أن ترجيحه لا يفضي إلى شـــيء من المفاسد فـــإن الحسد إن كان راسـخا في الطبع إلا أن كثـيرا من النـاس يحترزون منه ويجتنبونه.

(الشـبهة الثانية) : أن إخـوة يوسف وصـفوا أبـاهم بالضلال بقوله : (**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**).

(الجواب) : ليس المراد بالضلال عن الدين بالإجماع بل المراد العدول عن الصواب

(فــإن قلت) لمّا وصــفوه بــذلك فقد قــدحوا في عصمته واعتقـدوا أنه غـير مصـيب في أحكامه ومن اعتقد في الرسل ذلك كفر فيلزم القول بكفر اخوة يوسف.

(قلت) : الحكم بالإسلام والكفر شـرعي فلعل ذلك لم يكن كفرا في دينهم ، أو يقـال مـرادهم وصف يعقـوب بالغلو في الحب.

وذلك غير مقـدور لـه. فلم يكن وصـفهم أبـاهم بـذلك قدحا في عصمته [1].

(الشـــبهة الثالثة) فلم أرسل يوسف مع أخوته مع خوفه عليه منهم بقوله تعالى (**وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ اَلـذِّئْبُ**) [2] وهل هذا إلا تغريرا؟

(الجواب) : لا يمتنع أن يعقوب عليه السلام لما رأى في بنيه من الإيمـان والعهـود والاجتهـاد في حفظ يوسف ظن الســـلامة ، وبما ظن أنه لو لم يرســـله معهم ، مع مبـالغتهم في إظهـار الحب ، لاعتقــدوا في يعقــوب عليه السلام أنه يتهمهم على يوسف ويصير ذلك ســببا للوحشة العظيمة فلهذه الدعاوى بعثه معهم.

(الشبهة الرابعة) : لم أسرف يعقـوب عليه السـلام في الحزن والبكاء حـتى ابيضت عينـاه ومن شـأن الأنبيـاء التجلد والتصبر؟

(الجــواب) : التجلد على المصــائب وكظم الحــزن منـدوب وليس يـواجب ، وتـرك المنـدوب ليس بمعصـية ، على أن يعقوب عليه

---

1 ـ ولا طعنا بايمانهم وقد قال المؤلف جوابا على ذلك في تفسيره 5 / 109 ـ: انهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند اللّه تعالى الا انهم لعلهم جوزوا من الأنبياء أن يفعلـوا أفعـالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد. وجـواب المؤلف في تفسـيره أصـرح وأوضح من جوابه هاهنا.

2 ـ سورة يوسف الآية 13.

السلام إنما أبدى من الحزن اليسير من الكثـير ، وكـان ما يعتبر عليه أكثر وأوسع مما أظهره [1].

(الشبهة الخامسة) : أن يعقـوب عليه السـلام كـان يعلم برؤيا يوسف أن أمره يفضي إلى العاقبة الحسنة في الدنيا والدين ، فلم لم يتسل بذلك على حزنه؟

(الجواب) : أن علمه بذلك لا يـدفع الحـزن الحاصل بسبب المفارقة ، على أن يوسف عليه السـلام كـان حين رأى تلك الرؤيا صـــبيا فلا جـــرم لم يقطع يعقـــوب عليه السلام بصحته.

---

1 ـ ثم ان يعقوب تجلد وصبر فلم يظهر الشكاية لاحد من الخلق وقـال « انما اشــكو بشــيء وحــزني الى اللّه » وكل ذلك يــدل على انه لما عظمت مصــيبته وقــويت محنته صــبر وتجــرع الغصة ، انظر تفســير المؤلف 5 / 161.

قصة يوسف عليه السلام

(وفيها شبه)

(الأولى) أنه صبر على الرق ولم يـبين الحرية الـتي فيه وذلك معصية.

(الجواب) من وجوه :

(الأول) فلعله لم يكن نبيا في تلك الحالة ، ولما خـاف على نفسه القتل جـاز أن يصـبر على الـرق. ومن ذهب إلى هــذا الوجه حمل قوله تعــالى (**وَأَوْحَيْنٰا إِلَيْــهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذٰا**) [1] على وقت آخر.

(الثــاني) إن إظهــار الحرية أمر يجــوز أن يختلف بـاختلاف الشـرائع فلعله أمر بالسـكوت عنه امتحانا ، كما امتحن أبويه بنمروذ والذبح [2].

(الثالث) لعله عليه السلام أخبرهم بذلك إلا أنهم لم يلتفتوا إليه.

(الشــبهة الثانية) تمســكوا بقوله تعــالى حاكيا عن يوسف وامرأة العزيز (**وَرٰاوَدَتْهُ اَلَّتِي هُـوَ فِي بَيْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ اَلْأَبْـوٰابَ وَقٰـالَتْ هَيْتَ لَـكَ قٰـالَ مَعٰـاذَ اَللّٰـهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَـنَ مَثْـوٰايَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰـالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ**

1 ـ سورة يوسف الآية 15.

2 ـ يظهر أن المؤلف يرى أن الذبيح هو اسحاق باعتبـار أن اسـحاق هو جد يوسف ، وهــذا خطأ واضح فاســماعيل هو الــذبيح كما تؤكد ذلك الدلائل الـتي تبحث في مظانها ، وقد حقق المؤلف هـذا الموضـوع في تفسيره دون أن يرجح أحد الرأيين 6 / 150 فلينظر.

كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ اَلسُّوءَ وَاَلْفَحْشٰاءَ)[1].

(الجواب) : قال القاضي أبو طـاهر الطوسي رحمه اللّه تعـالى[2] شـهد بـبراءة يوسف من الـذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحـاكم ونسـوة وملك وادعى يوسف ذلك واعـترف له خصـمه بصـدق ما قاله مـرتين ، وشـهد بذلك رب العـالمين الـذي هو أصـدق القـائلين ، واعترف إبليس فكيف يلتفت إلى قول هـؤلاء الحشـوية؟! أما شــهادة الــزوج فقوله تعــالى (**إِنَّهُ مِنْ كَيْـدِكُنَّ إِنَّ كَيْـدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُـفُ أَعْـرِضْ عَنْ هٰـذٰا وَاِسْـتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ اَلْخٰاطِئِينَ**)[3] وأما شـهادة الحـاكم فقوله (**وَشَهِدَ شٰـاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ كٰـانَ قَمِيصُـهُ قُـدَّ مِنْ قُبُلٍ**)[4] وأما شهادة النسوة فقولهن (**حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْـهِ مِنْ سُـوءٍ**)[5] وأما شــهادة الملك فقوله (**إِنَّكَ اَلْيَوْمَ لَدَيْنٰا مَكِينٌ أَمِينٌ**)[6] وما ادعــاء يوسف عليه السلام ذلك فقوله (**هِيَ رٰاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِـي**)[7] وقوله (**رَبِّ اَلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**)[8] وقوله (**ذٰلِـكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْـهُ بِـالْغَيْبِ**)[9] وأما اعــتراف الخصم فقولها للنســوة (**وَلَقَـدْ رٰاوَدْتُـهُ عَنْ نَفْسِـهِ فَاسْتَعْصَمَ**)[10] وقوله (**اَلْآنَ حَصْحَصَ اَلْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ**)[11] وأما شهادة رب العالمين فقوله (**كَـذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ اَلسُّوءَ وَاَلْفَحْشٰاءَ**)[12] وأما اعتراف

---

1 ـ سورة يوسف الآية 24.
2 ـ لم يعز المؤلف « في التفسـير » هـذا الموضـوع الى قائله ، فهنا بيان لصاحب هذا القول اللطيف.
3 ـ سورة يوسف الآية 28.
4 ـ سورة يوسف الآية 26.
5 ـ سورة يوسف الآية 51.
6 ـ سورة يوسف الآية 54.
7 ـ سورة يوسف الآية 26.
8 ـ سورة يوسف الآية 33.
9 ـ سورة يوسف الآية 52.
10 ـ سورة يوسف الآية 32.
11 ـ سورة يوسف الآية 51.
12 ـ سورة يوسف الآية 24.

إبليس بذلك فقوله تعالى حكاية عنه (**لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ**) [1] فبين أنه يغـوي الكل إلا المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعـالى (**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُخْلَصِـــينَ**) [2] فأية شـــبهة تبقى مع هـــذه الشهادات في براءة يوسف عن الذنوب. ثم قـال القاضي : وهـؤلاء الطـاعنون في يوسف إن كـانوا من حـزب اللّه فليقبلوا قوله ، وإن كانوا من حزب الشيطان فيجب أن لا يـــتركوا قوله (**لَأُغْـــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَـــادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ**) [3] وإذا ظهـرت هـذه الجملة فلنـذكر معـنى الآية فنقول :

(الهم) : في اللغة جاء لمعان أربعة :

(الأول) : العـزم على الفعل لقوله تعـالى (**إِذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَنْ يَبْسُـــطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـــدِيَهُمْ**) [4] أي أرادوا ذلك وعزموا عليه.

(الثاني) : خطور الشيء بالبال ، قـال اللّه تعـالى (**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَـلاَ وَاَللّـهُ وَلِيُّهُمَا**) [5] فإنما أراد اللّه تعـــالى أن الفشل خطر ببـــالهم ولو كـــان المـراد هاهنا العـزم لما صح أن يكـون اللّه وليا لهم ، لأن العزم على المعصـية معصـية ويـدل عليه أيضا قـول كعب بن زهير :

فكم فيهم من ســـــــيد متوسع	ومن فاعل للخـــير قد هم أو عـــــــــــــــــــــزم

(الثالث) : أن يستعمل بمعنى المقاربة يقولـون هم بكذا أي كاد يفعله قال ذو الرمة :

1 ـ سورة الحجر الآية 40.
2 ـ سورة يوسف الآية 24.
3 ـ سورة الحجر الآية 40.
4 ـ سورة المائدة الآية 11.
5 ـ سورة آل عمران الآية 122.

أقــول لمســعود بجرعــاء مالك وقد هم دمعي أن يلج أوائله

والدمع لا يجوز عليها العزم وإنما أراد أنه كاد وقارب.

(الرابع) : الشــهوة وميل الطبــاع لأن الإنســان قد يقول فيما يشتهيه هـذا من همي فثبت أن الهم مسـتعمل في هذه المعاني.

فإن حملناه على العزم ففيه وجهان :

(الأول) : أن الهم في ظاهر الآية معلق بذاته وذاتها. وذلك غـير جـائز لأن الـذوات لا تـراد فلا بد من تـرك هـذا الظـاهر وتعليق الهم بشــيء غــير الــذات. وإذا ثبت هــذا فنقـــــول : ليس تعليقه ببعض الأمــــــور أولى من تعليقه بالبـاقي إلا للـدليل فأما همها فكـان متعلقا بالفاحشة دون سائر الأمور وذلك للنص والإجماع. أما النص فقوله تعـالى (**وَقٰالَ نِسْوَةٌ فِي اَلْمَدِينَةِ اِمْرَأَتُ اَلْعَزِيزِ تُـرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهٰا حُبًّا إِنّٰا لَنَرٰاهٰا فِي ضَـلاٰلٍ مُبِينٍ**) [1] وقوله (**وَرٰاوَدَتْهُ اَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهٰا عَنْ نَفْسِـهِ**) [2] وقوله تعـــالى حاكيا عنها (**اَلْآنَ حَصْـحَصَ اَلْحَــقُّ أَنَا رٰاوَدْتُــهُ عَنْ نَفْسِــهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰــادِقِينَ**) [3] وفي موضع آخر (**وَلَقَدْ رٰاوَدْتُـهُ عَنْ نَفْسِـهِ فَاسْتَعْصَـمَ**) [4] وأما الإجمــاع فهو أن المفســرين اتفقــوا على أنها همت بالمعصية والفاحشة. وأما همه فقد دللنا على أنه لا يجــوز أن يكــــون متعلقا وبالفاحشة وليس في ظــــاهر الآية ما يقتضيه فلا جـرم علقنـاه بدفعه إياها عن نفسه كما يقـول القائل : لقد كنت هممت بفلان أي بأن أوقع به ضربا.

لا يقال : فأي فائدة على هذا التأويل في قوله تعـالى : (**لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰـانَ رَبِّهِ**) [5] والـدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان

---

1 ـ سورة يوسف الآية 30.
2 ـ سورة يوسف الآية 23.
3 ـ سورة يوسف الآية 51.
4 ـ سورة يوسف الآية 32.
5 ـ سورة يوسف الآية 24.

عنه لأنا نقول يجوز أن يكون لما هم بـدفعها وضـربها أرى برهانا على أنه لو قـدم على ما هم به أهلكه أهلها وقتلـوه ، وأنها تـدعي عليه المـراودة على القـبيح وتنسـبه إلى أنه دعاها إلى نفسه وضربها لامتناعها منه. فأخبره اللّه تعالى أنه صـرف بالبرهـان عنه السـوء والفحشـاء اللـذين هما القتل والمراودة وظن القبح واعتقاده فيه. لا يقال : فهـذا يقتضي أن يكـــون جـــواب لفظة (لو لا) متقـــدما عليها ويكون التقدير لو لا أن رأى برهان ربه لهم بقربها ، وتقدم جواب (لو لا) غـير جـائز. لأنا نقـول : لا نسـلم أن تقـدم جواب (لو لا) غير جائز وسيأتي تقريره ، سلمنا ذلك ولكن لا حاجة بنا إليه في هذا المقام ، لأن العـزم على الضـرب والهم قد وقع إلا أنه انصـرف عن فعله بسـبب البرهـان. وتقـــدير الكلام : ولقد همت به وهم بـــدفعها لو لا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك. والجواب محذوف مضمر.

(الوجه الثـــاني) : في حمل الهم على العـــزم أن يحمل الكلام على التقـــديم والتـــأخير ، والتقـــدير : ولقد همت به ولو لا أن رأى برهـــان ربه لهم بها ويجـــري ذلك مجـــــــرى قولك : قد كنت هلكت لو لا أن تداركته ، وقد اسـتبعد الزجـاج [1]. وعلي بن عيسى [2] هـذا الجـواب من وجهين :

(الأول) : أنه لا يجوز تقدم جواب لو لا. (الثـاني) : جوابه يكـــون بـــاللام كقوله (**فَلَـــوْ لاٰ أَنَّهُ كٰـــانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ**) [3].

(والجـــواب) : أنا لا نســـلم أنه لا يجـــوز التقـــديم ، والدليل عليه قوله تعالى : (**إِنْ كٰـادَتْ لَتُبْـدِي بِـهِ لَـوْ لاٰ أَنْ رَبَطْنٰا عَلىٰ قَلْبِهٰا**) [4]

1 ـ هو ابراهيم بن السري الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ومـات في بغداد ت 311 هـ.
2 ـ هو علي بن عيسى الربعي ، عالم بالنحو واللغة ت 420 في بغداد.
3 ـ سورة الصافات الآية 143.
4 ـ سورة القصص الآية 10.

وأيضا فلو لم يجعل التقـديم على (لو لا) جوابا لها لكـان جوابها محذوفا. وإذا دار الأمر بين أن يكون جوابا محـذوفا وبين أن يكون متقدما عليها لا شك أن التقديم أولى.

(فإن قلت) : فأي فائـدة في قوله : (**وَهَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ**) [1] إذا لم يكن هناك هم؟

(قلت) : الفائـدة فيه الإخبـار على أن تـرك الهم به وإجابتها إلى ملتمسـها لم يكن من حيث كـان غـير راغب في النسـاء لعجز لكنه تـرك ذلك للّه وفي اللّه طلبا لثوابه وهربا من أليم عقابه.

(فـإن قلت) : فما البرهـان الـذي رآه يوسف عليه السلام؟

(قلت) فيه وجوه ثمانية :

(الأول) : أنه حجة اللّه في تحـريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب قاله محمد بن كعب.

(الثاني) : ما آتـاه اللّه من آداب أنبيائه من العفـاف وصيانة النفس عن الأرجاس.

(الثـالث) : رأى مكتوبا في سـقف الـبيت (**وَلاٰ تَقْرَبُوا اَلزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَسٰاءَ سَبِيلاً**) [2].

(الرابع) : عن الصادق : النبـوة المانعة من ارتكـاب الفواحش.

(الخامس) : عن زين العابدين : كان في ذلك البيت صنم فألقت المرأة ثوبا عليه وقـالت أسـتحي منـه. فقـال يوسف : تسـتحي من الصـنم فأنا أحق أن أسـتحي من الواحد القهار.

---

1 ـ سورة يوسف الآية 24.

2 ـ سورة الاسراء الآية 53.

(السادس) : أنه سمع قـائلا يقـول يا ابن يعقـوب لا تكن كالطير فإذا زنا ذهب ريشه.

(السـابع) : سـمع قـائلا يقـول : أنت مكتـوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء.

(الثامن) : عن ابن عباس رأى صورة الملك ، وقيل : صورة يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله.

(فـإن قلت) : لو كـان البرهـان عبـارة عن أنه رأى يعقوب عاضا على إصبعه أو نادته الملائكة بالزجر لاقتضى ذلك الإلجـاء وصـار منافيا للتكليف ، ولما اسـتحق يوسف عليه السلام بالبعد عن ذلك الفعل مدحا ولا ثناء ولا ثوابا.

(قلت) : أليس إن المعتزلة قالوا في قوله تعالى : (**وَلَـــوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَيْهِمُ اَلْمَلاٰئِكَـــةَ وَكَلَّمَهُمُ اَلْمَـــوْتىٰ وَحَشَرْنٰا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَـيْءٍ قُبُلاً مٰا كٰـانُوا لِيُؤْمِنُـوا إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اَللّٰـهُ**) [1] إن شـيئا منها لا يـوجب الإلجـاء ، وإذا كان كذلك فكيف يلزم من مشاهدة يعقوب وسماع صوت الملائكة حصول الإلجاء.

(الشبهة الثالثة) : تمسكوا بقوله تعالى (**وَمٰا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ اَلنَّفْسَ لَأَمّٰارَةٌ بِالسُّوءِ**) [2].

(الجواب) من وجهين :

(الأول) : أنه أراد الدعاء والمنازعة ولم يـرد العـزم على المعصية ، وهو لا يبرئ نفسه عما لا يقوى عنه طبـاع البشر.

---

1 ـ سورة الانعام الآية 111.
2 ـ سورة يوسف الآية 53.

(الثــاني) هو أن هــذا من كلام المــرأة لا من كلام يوسف عليه السلام بدليل أن هذا مسوق إلى كلام المرأة فإنه تعـالى قـال (**قَالَتِ اِمْرَأَةُ اَلْعَزِيزِ اَلْآنَ حَصْحَصَ اَلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ اَلصَّادِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اَللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ اَلْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ اَلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**) [1] الكلام على كلام المــرأة فقوله تعــالى (**ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**) من كلام المرأة لا من كلام يوسف. والمكـنى عنه في قوله (**لَمْ أَخُنْهُ**) هو يوسـف. وهو غـائب في السـجن ، ولم أقل فيه لما سـئلت عن قصتي إلا الحق ، وليس في القـرآن ما يـدل على أن ذلك من قـول يوسف عليه السـلام. ومهما جعل ذلك من قـول يوسف عليه السـلام احـتيج إلى حـذف طويل من رجــوع الرسـول إلى يوسف عليه السـلام ، وإخبـاره بما قاله له حتى يجيبه يوسف عليه السـلام ، ثم رجـوع الرسـول إلى الملك ثانيا وإخباره إيـاه بمقالة يوسف عليه السـلام حـتى يقول الملك (**اِئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**) [2] وهـذا محال لا يجـوز مثله في القـرآن ولا في الشـعر. ولو جعلنا ذلك من قـول يوسف عليه السـلام لم يـوجب ذلك إلحـاق الفاحشة به ، بل هو أدل دليل على بــراءة ســاحته وذلك لأنه قال (**لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**) ولا خيانة أعظم من الهم بامرأته والقعود منها مقعد الرجل من امرأته.

(الشبهة الرابعة) أنهم سجنوا يوسف عليه السلام ، وذلك معصية بالاتفاق وأنه عليه السلام قال (**رَبِّ اَلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**) [3] فيـدل ذلك على محبته لتلك المعصية ، ومحبتها معصية.

(الجواب) من وجهين :

---

1 ـ سورة يوسف الآيات 51 ـ 52 ـ 53.
2 ـ سورة يوسف الآية 54.
3 ـ سورة يوسف الآية 33.

(الأول) : المـراد من الأحب الأخف والأسـهل فهـذا كمن يخير بين شيئين مكروهين جدا ، فيقول إن كذا أحب إلي ، أي أخف.

(الثـــاني) أن تـــوطين النفس على تحمل مشـــقة السـجن أحب إلي من مواقعـتي المعصـية. فأما قوله : (**وَإِلاَّ تَصْـــرِفْ عَنِّي كَيْـــدَهُنَّ أَصْـــبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) [1] فهو تصريح بـأن شـيئا من الطاعـات لا يتم إلا بمعونة اللّه تعالى ولطفه.

(الشـــبهة الخامسة) : كيف يجـــوز على يوسف مع نبوته أن يعول على غير اللّه في الخلاص من السـجن في قوله للذي كان معه (**اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**) [2] حـتى وردت الروايـات أنه إنما طـال مقامه في الحبس لأنه عـول على غير اللّه؟

(الجـــواب) : أن الـــدنيا دار الأســـباب ، فالتمسك بالأسباب لا ينافي حقيقة التوكل [3].

(الشبهة السادسة) : ما الحكمة في طلب أخيه من إخوته ، ثم حبسه عن الرجـوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن؟ وهل هذا إلا ضرر بأبيه؟

(الجواب) : إنما فعل ذلك بوحي من اللّه تعالى إليه زيادة في امتحان أبيه. والمـراد من قوله (**سَـنُرَاوِدُ عَنْـهُ أَبَاهُ**) [4] ليس الخداع والكذب بل اللطف والاحتيال.

1 ـ سورة يوسف الآية 33.
2 ـ سورة يوسف الآية 42.
3 ـ قال المؤلف في تفسيره 5 / 136 : الا أن الأولى بالصديقين أن يقطعـــوا نظـــرهم عن الاســـباب بالكلية وان لا يشـــتغلوا الا بحسب الاسباب.
4 ـ سورة يوسف الآية 61.

(الشبهة السابعة) : فما معنى جعل السقاية في رحل أخيه؟

(الجواب) أما جعل السقاية في رحل أخيه فالغرض منه التسبب إلى احتباس أخيه عنده. ويجوز أن يكون ذلك بأمر اللّه تعالى. وروي أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا إلى التمسك به. وعلى هذا الوجه لا يكون ذلك سببا لإدخال الغم في قلب أخيه.

(فإن قلت) فلا أقل من أن يكون ذلك سببا لتعريض أخيه لتهمة السرقة؟

(قلت) لا نسلم فإن وجود السقاية في رحل أخيه يحتمل وجوها كثيرة ، فمن صرفه إلى السرقة كان هو المقصر. وأما نداء المنادي ـ أنهم سارقون ـ ففيه ثلاثة أوجه :

(الأول) : أنه ما كان بأمره عليه السلام ، بل نادى بذلك واحد من القوم لما فقدوا الصواع.

(الثاني) : هب أنه كان بأمره لكنه لم يناد بأنهم سرقوا الصواع بل نادى بأنهم سارقون ، فلعل المراد أنهم سرقوا يوسف من أبيه.

(الثالث) : أن الكلام خارج على معنى الاستفهام ، وإن كان ظاهره ظاهر الخبر كأنه قال : أإنكم لسارقون؟ فأسقط همزة الاستفهام كما أسقطت في قوله (هٰذا رَبِّي).

(الشبهة الثامنة) : ما بال يوسف لم يعلم أباه خبره حتى تسكن نفسه ويزول حزنه؟

(والجواب) : لعله امتنع عنه بأمر اللّه تشديدا على يعقوب عليه السلام.

(الشبهة التاسعة) : قال اللّه تعالى (**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى اَلْعَرْشِ**

وَخَـرُّوا لَـهُ سُـجَّداً)[1] وكيف رضي بـأن يسـجدوا له والسجود لا يكون إلا للّه ، وكيف رضي باستخدام الأبوين؟

(الجواب) : المعنى خروا لأجله سجدا للّه.

(فـإن قلت) : هـذا التأويل يفسـده قوله تعـالى (**يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّي حَقًّا**)[2]

(قلت) : لا نسـلم ، فـإن تأويل رؤيـاه : بلوغه أرفع المنازل ، فلما رأى أبويه على أشرف الحالات في الدارين كان ذلك مصدقا لرؤياه المتقدمة.

(الشبهة العاشرة) : ما معنى قوله تعالى حكاية عنه (**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ اَلشَّيْطٰانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**)[3].

(جوابه) أن الـنزغ الشـيطاني كـان منهم إليه لا منه إليهم ، وهو كقول القائل : كان بيـني وبين فلان شر ، وإن كان من أحدهما دون الثاني.

(الشـبهة الحادية عشـرة) : ما معـنى قوله عليه السـلام (**اِجْعَلْنِي عَلىٰ خَزٰائِنِ اَلْأَرْضِ**)[4] وكيف يجـوز أن يطلب الولاية من قبل الظالم؟

(جوابه) إنما التمس بتمكينه من خـــزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل لأنه بسـبب نبوته كـان مسـتحقا لـذلك وللمستحق أن يتوصل إلى حقه بأي طريق كان.

1 ـ سورة يوسف الآية 100.
2 ـ سورة يوسف الآية 100.
3 ـ سورة يوسف الآية 100.
4 ـ سورة يوسف الآية 55.

قصة أيوب عليه السلام

حكى اللّه تعالى أنه قال (**مَسَّنِيَ اَلشَّيْطَٰانُ بِنُصْبٍ وَعَذَٰابٍ**) [1] والعذاب لا يكون إلا جزاءا كالعقاب ، فدل على كونه مذنبا ، وروى جمع من المفسرين أن اللّه تعالى إنما عاقبه بذلك البلاء لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(جوابه) : لا نسلم أن العذاب لا يكون إلا جزاءا. ولهذا يقال للظالم المبتدئ بالظلم : إنه يعذب الناس فأما إضافة ذلك إلى الشيطان فنقول : إنه عليه السلام ما أضاف المرض إلى الشيطان ، وإنما أضاف إليه ما كان يشعر به من وسوسته وتذكيره له مما كان فيه من النعم والعافية ودعائه له إلى التضجر ، ولأنه كان يوسوس إلى قومه بأن يستقذروه ، لما كان عليه من الأمراض البشعة المنظر ، وأيضا فإن اللّه تعالى مدحه في آخر الآية بقوله (**إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ**) [2] فلو كان أول الآية دالا على كونه مذنبا لكان مدحه عقيب ذلك موهما أنه مدحه على ذنبه وهو غير جائز. واللّه الموفق.

---

1 ـ سورة ص الآية 41.
2 ـ سورة ص الآية 44.

قصة شعيب عليه السلام

(وفيها شبه ثلاث)

(الشبهة الأولى) ما معنى قوله (**وَاِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) [1] والشيء لا يعطف على نفسه لا سـيما بالحرف الذي يقتضي الـتراخي وهو (ثم) ، (جوابه) من وجوه ثلاثة :

(الأول) أن يكون المعنى اجعلوا المغفـرة غرضـكم الـذي تتوجهـون إليه ، ثم توصـلوا إليها بالتوبـة. فـالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب.

(الثـاني) اسـتغفروا ربكم أي سـلوه للمؤمـنين المغفرة بالمعونة عليها ، ثم توبوا إليه ، والشيء لا يعطف لأن المسألة للتوفيق ينبغي أن يكون قبل التوبة.

(الثالث) وهو أن للتخلص من ضرر الذنب طريقين : (أحـدهما) مغفرته تعـالى وعونـه. وذلك إنما يكـون عند تقـارب الـذنب. (والثـاني) التوبة الماحية للـذنب ، فكأنه عليه السـلام أرسل إلى طلب التخلص من تلك المعاصي بجميع الطرق الممكنة.

(الشبهة الثانية) ما معنى قول شعيب عليه السـلام لموسى عليه السلام :

---

1 ـ سورة هود الآية 90.

(**إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ أُنْكِحَـكَ إِحْـدَى اِبْنَتَيَّ هٰـاتَيْنِ عَلىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمٰانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْـدِكَ**) [1] فكيف يجوز في الصداق التخيير؟ وأي فائدة للبنت فيما شرطه هو لنفسه وليس يعود عليها من ذلك نفع؟ [2]

(جوابه) من وجهين :

(الأول) يجـوز أن تكـون الغنم كـانت لشـعيب عليه السلام وكانت الفائدة لاسـتئجار من يرعاها عائـدة إليه إلا أنه عـــوض ابنته عن قيمة رعيتها فيكـــون ذلك رعيا لها ، وأما التخيـير فلم يكن إلا فيما زاد على ثمـاني حجج وذلك الزائد لم يكن من الصـداق ، ويجـوز أيضا أن تكـون الغنم للبنت وكان الأب متوليا لأمرها ، قابضا لصداقها.

(الثـاني) يجـوز أن يكـون من شـريعته العقد على التراضي من غير صداق معين ، ويكـون قوله : (**عَلىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمٰانِيَ حِجَجٍ**) على غير وجه الصداق.

(الشـــبهة الثالثة) قوله : (**لَنُخْرِجَنَّكَ يٰا شُـــعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**) الآيتين [3]. فاعترف شعيب على أنه تعالى نجاه من ملتهم الـتي هي الكفر ولا يعـود فيها والعائد إلى الشيء هو من كان فيه ، فـيرجع إليه بعد مفارقته وكـذلك سبيل النجاة.

---

1 ـ سورة القصص الآية 37.

2 ـ كون شعيبا هو الشيخ الكبير أمر مشكوك فيه لقول شعيب لقومه (**وَمٰا قَـوْمُ لُـوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيـدٍ**) أي أنه كـان قبل زمـان موسى بمـدة طويلة ، وما روى من أحـاديث بهـذا الشـأن قـال عنهما ابن كثـير في تفسيره « هو ما لا يصح اسناده » (3 / 384) وقد حقق الموضوع عبد الوهاب النجار في « قصص الأنبياء » ص 169 فلينظر.

3 ـ سورة الاعراف ، الآية 88 ـ 89.

(جوابه) : العـود إلى الشـيء قد يسـتعمل فيما لم يكن فيه قط ، فإن اللّه تعالى سمى القيامة معادا وإن لم تكن فيها ، وكـذلك النجـاة قد تسـتعمل فيما لم تكن فيه ، فإن السالم مما ابتلى به غيره قد يقول : الحمد للّه الـذي نجانا مما ابتلي به فلانا.

(وجه آخر) : وهو أن الكناية في قوله : (**بَعْـدَ إِذْ نَجّانَا اَللّـهُ مِنْهَا**) يرجع إلى الملة ، ويجـوز أن يكـون شعيب قبل الوحي مكلفا بتلك الملة ، ثم صارت منسوخة ، فدعوه إليها مرة أخرى فأجابهم شعيب عليه السلام بأنه ليس له أن يعود إليها بعد نسخها.

قصة موسى عليه السلام

(فيها شبه ستة) (الشبهة الأولى) : تمسكوا بقوله تعـالى : (**فَوَكَزَهُ مُوسـىٰ فَقَضـىٰ عَلَيْهِ**)[1] فـإن ذلك القبطي إما أن يكون مستحقا للقتل أو لا.

فإن كان الأول فلم قال (**هٰذٰا مِنْ عَمَلِ اَلشَّيْطٰانِ**) و (**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**) الآية [2] و (**فَعَلْتُهٰا إِذاً وَأَنَا مِنَ اَلضّٰالِّينَ**) [3]؟ وإن كان الثاني كان عاصيا في قتله.

(جوابه) يحتمل أن يقال : إنه لكفره كـان مسـتحقا للقتل وإنه لم يكن لكن موسى قتله خطأ ، وأنه لم يقصد إلا تخليص الـذي من شـيعته من ذلك القبطي. فتـأدى به ذلك إلى القتل من غير قصد.

وأما الآيـات فمن جـوز الصـغيرة حملها عليه فـإن الاستغفار والتوبة تجب من الصغيرة كما تجب من الكبيرة ومن أباها فلم يحملها عليه.

وأما قوله : (**هٰـذٰا مِنْ عَمَـلِ اَلشَّـيْطٰانِ**) ففيه وجهان :

(الأول) أن اللّه تعـالى ندبه إلى تـأخير قتل أولئك الكفار إلى

---

1 ـ سورة القصص ، الآية 15.
2 ـ سورة القصص ، 15 ـ 16.
3 ـ سورة الشعراء ، الآية 20.

حال القدرة فلما قتل فقد تـرك المنـدوب ، فقوله : (هٰـذٰا مِنْ عَمَلِ اَلشَّيْطٰانِ) معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان.

(الثـاني) أن يكـون المـراد أن عمل المقتـول عمل الشيطان ، والمراد بيـان كونه مخالفا للّه تعـالى مسـتحقا للقتل ، ويكون قوله : (هـذا) إشـارة إلى المقتـول بمعـنى أنه من جند الشـــيطان وحزبه ، يقـــال : فلان من عمل الشيطان أي من أصـحابه. فأما قوله : (**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِــي فَــاغْفِرْ لِي**) فعلى نهج قـــول آدم : (**ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا**) [1] والمراد أحد الوجهين إما على سبيل الانقطاع إلى اللّه تعـالى والاعـتراف بالتقصـير عن القيـام بحقوقه وإن لم يكن هنـــاك ذنب قط ، أو من حيث حـــرم نفسه الثـواب على فعل المنـدوب ، وأما قوله : (**فَاغْفِرْ لِي**) فالمراد اقبل مني هذه الطاعة والانقطاع إليـك. وأما قوله : (**فَعَلْتُهٰا إِذاً وَأَنَا مِنَ اَلضّٰالِّينَ**) فلم يقل : إني صـرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرا إلى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا في ذلك الوقت فاعترف بأنه كان ضـالا أي متحـيرا لا يـدري ما يجب عليه أن يفعله وما يريده في ذلك واللّه أعلم [2].

(الشبهة الثانية) كيف لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه (**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**) [3]؟

(جوابه) : إن قوم موسى عليه السلام كـانوا غلاظا جفاة. ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات (**اِجْعَـلْ لَنٰا إِلٰهاً كَمٰا لَهُمْ آلِهَةٌ**) [4] وكان المراد ذلك.

---

1 ـ سورة الاعراف ، الآية 23.

2 ـ وقد زاد المؤلف جوابا على ذلك في تفسـيره (6 /ـ 467) : وان سـلمنا أن هـذه معصـية لكن لا دليل على انه كـان رسـولا في ذلك الوقت.

3 ـ سورة القصص ، الآية 18.

4 ـ سورة الاعراف ، الآية 138.

(الشبهة الثالثة) : لما قال اللّه تعالى (أَنِ ائْتِ اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ) فلم قال في جوابه (إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاٰ يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ) [1] وهذا استغناء عن الرسالة؟

(جوابه) : ليس هذا استغناء عن الرسالة ، ولكنه إذن في أن يسأل ضم أخيه إليه في الرسالة على ما ذكره اللّه تعالى في قوله في سورة طه [2] (وَهَلْ أَتٰاكَ حَدِيثُ مُوسىٰ) إلى قوله (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي) فقال اللّه تعالى (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسىٰ) وكان في ذلك السؤال مأذونا فاندفع السؤال.

(الشبهة الرابعة) : كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصي وذلك سحر وتلبيس وكفر ، والأمر بمثله لا يجوز؟

(جوابه) : ذلك الأمر كان مشروطا والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين ، كما في قوله تعالى (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) [3] أي إن كنتم قادرين ، وأيضا لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة صار جائزا.

(الشبهة الخامسة) (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً) [4] أو ليس خوفه يقتضي شكه فيما أتى به؟

(جوابه) لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس فآمنه اللّه منه وبين أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى (لاٰ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْأَعْلىٰ) [5].

1 ـ الآيات في هذه الشبهة 10 ـ 13 من الشعراء.
2 ـ سورة طه ، الآية 9 ـ 36.
3 ـ سورة البقرة ، الآية 23.
4 ـ سورة طه ، الآية 67.
5 ـ سورة طه ، الآية 68.

(الشبهة السادسة) (**وَأَلْقَى اَلْأَلْوٰاحَ**) الآية [1] ، فلا يخلو إما أن يكون قد صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب أو لم يصدر عنه فصدر عن موسى عليه السلام ، وأيضا فلأن هارون نهى موسى في قوله (**لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي**) [2] فإن كان موسى عليه السلام مصيبا فيما فعله كان هارون عاصيا في منعه عن فعل الصواب.

وإن كان هارون عليه السلام مصيبا في ذلك المنع كان موسى عليه السلام عاصيا في ذلك الفعل.

(جوابه) أما من جوز الصغائر عليهم فقد حمل الواقعة عليه وزال السؤال.

وأما من أباها فله وجهان :

(الأول) أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه في مثل ذلك الغضب ، فإن المفكر الغضبان قد يعض على شفتيه ويقلب أصابعه ويقبض على لحييه ، فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه لأنه كان شريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب. وأما قوله (لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي) فلا يمتنع أن يكون هارون خاف أن يتوهم بنو إسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ، ثم أخذ في شرح القصة ، وقال في موضع آخر (**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ**) [3] وفي موضع آخر (**اِبْنَ أُمَّ إِنَّ اَلْقَوْمَ اِسْتَضْعَفُونِي**) [4]

1 ـ سورة الاعراف ، الآية 150.
2 ـ سورة طه ، الآية 94.
3 ـ سورة طه ، الآية 94.
4 ـ سورة الاعراف ، الآية 150.

(الثاني) إن بني إسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى حـتى أن هـارون عليه السـلام غـاب عنهم غيبة فقــالوا لموسى : أنت قتلته فلما واعد اللّه موسى عليه السـلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الألـواح من كل شـيء رجع فـرأى في قومه ما رأى فأخذ بـرأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة فخاف هارون أن يسبق إلى قلـوبهم ما لا أصل له ، فقـال إشـفاقا على موسى عليه السـلام (**لاَ تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي**) لئلا يظن القـوم بك ما لا يليق.

قصة موسى والخضر عليهما السلام

(وفيها بحثـــان) (البحث الأول) ما يتعلق بموسى عليه السلام وهو من وجوه :

(الأول) أنه عليه السـلام قـال (**لَقَـدْ جِئْتَ شَـيْئاً إِمْــراً**) [2] و (**شَــيْئاً فُكــرَا**) [1] مع أن ذلك الفعل في نفسه ما كـــان كـــذلك ، والحكم على ما ليس بمنكر بأنه منكر خطأ ، فكان مخطئا.

(الثاني) أنه نعت نفس الغلام بأنها زاكية مع أنها لم تكن كذلك.

(الثالث) قوله (**لاَ تُؤٰاخِذْنِي بِمٰا نَسِيتُ**) [3] وعندنا النسيان غير جائز على الأنبياء.

(البحث الثاني) ما يتعلق بالخضر ، وهو من وجوه.

---

1 ـ سورة الكهف ، الآية 71.
2 ـ سورة الكهف ، الآية 74.
3 ـ سورة الكهف ، الآية 73.

(الأول) قوله تعـالى : (**أَمَّا اَلسَّـفِينَةُ فَكٰـانَتْ لِمَسٰـاكِينَ**) [1] والسـفينة البحرية تسـاوي المـال العظيم فكيف يسمى مالكها المسكين.

(الثاني) قوله (**وَكٰانَ وَرٰاءَهُمْ مَلِكٌ**) [2] ومن كـان وراءهم فقد سـلموا منه ، وإنما كـان خـوفهم مما كـان قدامهم.

(الثـالث) قوله (**فَخَشِـينٰا أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰانـاً وَكُفْراً**) [3] فكيف اسـتباح دم الغلام لأجل الخشـية مع أن الخشية لا تقتضي علما ولا يقينا؟

(الجواب) عن الأول : أما قوله (شيئا إمرا) أي عجبا ، قيل : منكـرا ، فـإن حملنـاه على الأول ولا إشـكال؛ وإن حملناه على الثاني كان الجـواب عنه وعن (نكـرا) واحـدا. وفيه وجوه :

(الأول) أن ظاهره منكر ، ومن يشاهده ينكـره قبل أن يعرف علته.

(الثاني) أن يكون حذف حرف الشرط فكأنه قال : إن كنت قتلته ظالما فقد جئت شيئا نكرا.

(الثالث) أن يكون قوله (نكـرا) أي عجيبا ، فـإنهم يقولون فيما يستغربونه ويجهلون علته : إنه نكر ومنكر.

وعن الثـــاني : أنه وصف النفس بكونها زاكية على سبيل الاستفهام لا على سـبيل الإخبـار ، وأيضا فلأنه تكلم بما ذكره إجراء للأمر على ظـاهره وذلك جـائز لقوله عليه السلام « نحن نحكم بالظاهر » [4].

---

1 و 2 ـ سورة الكهف ، الآية 79.
3 ـ سورة الكهف ، الآية 80.
4 ـ ليس هذا اللفظ معروفا ، والمشهور « أمرت أن أحكم بالظاهر » ، قال السيوطي

وعن الثـــالث أنا لا نجـــوز عليه النســـيان فيما يتعلق بالتبليغ والشرع وأما في غيره فجائز.

وعن الرابع إن تلك السفينة كـانت ملكا لقـوم ، فلعل كل واحد منهم كان قليل المال جدا.

وعن الخـــامس إن لفظ الـــوراء يعـــبر به عن الخلف والقدام فهي هاهنا بمعنى القـدام ، كما في قوله تعـالى (**مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ**) [1] يعني من قدامهم.

وعن الســـادس : لعل اللّه أوحى إليه بقتل الشـــخص فلذلك أقدم علمه [2].

في اللآلي : هو غير ثابت بهذا اللفظ. ولعله مروي بالمعنى من أحاديث صحيحة. وقال السخاوي في المقاصد الحسـنة : أشـتهر بين الاصـوليين والفقهاء ، بل وقع في شرح مسلم للنووي في قوله « اني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » ما نصه : معنـاه اني أمـرت بالحكم بالظـاهر واللّه يتـولى السـرائر كما قـال النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم ولا وجـود له في كتب الحـديث المشـهورة. وجـزم العـراقي والمزي بأنه لا أصل له.

1 ـ سورة الجاثية ، الآية 10.

2 ـ غريب جدا أن يغيب عن المصنف أن ذلك انما كـان بـوحي من اللّه بعد ما ورد من النص الصريح على ذلك في قوله (وما فعلته عن أمري) فهل بعد هذا تصريح بـأن الخضر انما كـان نبيا يتلقى الـوحي بما فعل من عند اللّه تعالى ، وانما كانت هذه الوقـائع بهـذه الصـورة لانها درس لموسى عليه السـلام يتعلم منه التمهل والـتروي. فـان سـبب ذلك كما جاء في صحيح البخاري. وغيره أن موسى عليه السـلام قـام خطيبا في بني إسرائيل فسئل من أعلم الناس؟ فقال : أنا ولم يرد العلم الى اللّه فعاتبه اللّه في ذلك ، وأمره أن يلحق بعبده خضر الخ القصة.

قصة داود عليه السلام

(وفيها شبهتان)

(الأولى) قوله (**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ اَلْخَصْمِ**) الآيات [1].

فـاعلم أن الـذي أقطع به عـدم دلالة هـذه الآية على صدور الكبيرة من داود عليه السلام. وبيانه من وجوه :

(الأول) أن الذي حكاه المفسرون عن داود وهو أنه عشق امـرأة أوريا فاحتـال حـتى قتل زوجها فتزوجها ، لا يليق بالأنبياء بل لو وصف به أفسق الملوك لكان منكرا.

(الثاني) أن الدخول في دم أوريا أعظم من الـتزوج بامرأته فكيف تـرك اللّه الـذنب الأعظم واقتصر على ذكر الأخف؟

(الثالث) أن السـورة من أولها إلى آخرها في حاجة منكرى النبوة فكيف يلائمها القدح في بعض أكـابر الأنبيـاء بهذا الفسق القبيح؟

(الرابع) أن اللّه تعالى وصف داود عليه السـلام في ابتداء القصة بأوصاف حميدة. وذلك ينـافي ما ذكـروه في الحكاية بيان وصفه تعالى بأوصاف حميدة من وجوه :

(الأول) قوله تعالى : (**ذَا اَلْأَيْدِ**) [2] والأيد القوة ولا شك أن المراد منه القوة في الـدين ، لأن القـوة في غـير الدين كانت موجودة في

1 ـ سورة ص ، الآية 21 ـ 26.
2 ـ سورة ص ، الآية 17.

الملوك الكفـار ، وما اسـتحقوا بها مـدحا ، إنما المسـتحق للمدح هو القوة في الدين.
(الثاني) أنه لما ثبت كونه موصوفا بالقوة في الدين ولا معـنى للقـوة في الـدين إلا العـزم الشـديد على أداء الواجبات واجتنـاب المحظـورات فكـان داود عليه السـلام من أولي العزم. وقد قال اللّه تعالى : (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ**) [1] وأمر محمـدا عليه الصـلاة والسـلام بالاقتـداء بـأولى العـزم ، فـإذا كـان داود عليه السـلام من أولى العـزم ما كـان قد أمر محمـدا بالاقتـداء بداود عليه السلام. وهذه درجة لا توازيها درجة.
(الثـالث) أنه لما وصف بـالقوة فـأي قـوة لمن لم يملك نفسه عن الفجور والقتل؟
(الرابع) أنه وصـفه بكونه أوابا والأواب هو الرجـاع والرجــاع إلى ذكر اللّه يســتحيل أن يكــون مواظبا على أعظم الكبائر.
(الخامس) قال : (**سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ**) الآيتين [2] ، أفترى أنه سخر له ذلك ليتخذه وسيلة إلى القتل والزنا؟ وقيل : إنه كان محرما عليه صيد كل شيء فكانت الطيور تأمنه ، فكيف يجوز أن تأمنه الطير ولا يأمنه المسلم على زوجته؟
(السـادس) قوله (**وَشَدَدْنَا مُلْكَـهُ**) [3] ومحـال أن يكـون المـراد منه شـدة ملكه بالمـال والعسـكر مع كونه مســلما من طريق الــدنيا لا من طريق الــدين لأن ذلك سبيل الملوك الكفرة ، لأن قوله : (**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ**) عـام في الدين والدنيا.
(السـابع) قوله : (**وَآتَيْنَـاهُ الْحِكْمَـةَ**) [4] والحكمة اسم جامع

---

1 ـ سورة الاحقاف ، الآية 35.
2 ـ سورة ص ، الآية 18 ـ 19.
3 ـ سورة ص ، الآية 20.
4 ـ سورة ص ، الآية 20.

لكل ما ينبغي علما وعملا ، فكيف يجــوز أن يقــول اللّه (**وَآتَيْنٰـاهُ ٱلْحِكْمَـةَ**) مع إصــراره على ما يســتنكفه أخبث الشياطين من مزاحمة أفضل أصـحابه وأحبائه في الـزوج والمنكوح.

فبان أن اللّه تعالى لما وصفه بهذه الصفة كان القول بما ذكروه من الفاحشة باطلا ، إذ ما قبل تلك الصـفة هي هــذه الممـــادح ، وما بعـــدها قوله تعـــالى (**يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰـاكَ خَلِيفَـةً**) [1] وهــذا أيضا من أجل الممــادح فلو توسطها ما يـدل على أفحش المقـابح لجـرى ذلك مجـرى قول من يقـول فلان عظيم الدرجة في الـدين على الرتبة في طاعة اللّه ، يقتل ويزني ويلـوط وقد جعله اللّه تعـالى خليفة لنفسه وصـــوبه في أحكامه ، وأمر أكـــابر الأنبيـــاء بالاقتداء به فكما أن هذا الكلام لا يليق بعاقل فكذا هاهنا.

(الثامن) أنه قال بعد تمام القصة (**جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ**) وتـرتيب الحكم على الوصف مشـعر بكـون الوصف علة لذلك الحكم فعلى ما ذكـروه يلـزم أن يكـون تفـــــويض خلافة الأرض إليه بســــبب إقدامه على القتل والفسق ، وذلك مما لا يقول به عاقل.

(التاسع) أنه قال في حق الرسل (**إِنّٰا أَخْلَصْـنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْـرَى ٱلـدّٰارِ وَإِنَّهُمْ عِنْـدَنٰا لَمِنَ ٱلْمُصْـطَفَيْنَ ٱلْأَخْيٰـارِ**) [2] وكــلّ ذلك ينــافي وصــفهم بالإقــدام على الكبيرة والفاحشة.

(العاشر) أنهم ذكـــروا في روايتهم أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب قـال « رب إن آبائي قد ذهبوا بـالخير كله فـأوحى إليه : إنهم إنما وجدوا ذلك لأنهم لما ابتلوا صبروا فسأل

---

1 ـ سورة ص ، الآية 26.
2 ـ سورة ص ، آية 46 ـ 47.

الابتلاء فـــأوحى اللّه إليه : إنك لمبتلى في يــــوم كــــذا فــاحترس » ثم وقع فيما وقع فيه إلى آخر القصة ، فــدل أول حكـايتهم على أن اللّه تعـالى ابتلاه بـالبلاء الـذي يزيد في منقبته ، فكيف يليق العشق والقتل بذلك؟

(الحادي عشر) قول داود عليه السلام (**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلْخُلَطٰــاءِ لَيَبْغِي بَعْضُــهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا اَلصّـالِحٰاتِ وَقَلِيـلٌ مٰا هُمْ**)[1] اسـتثنى الذين آمنوا من هذا البغي فإن كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكما على نفسه بعدم الإيمان.

(الثـاني عشر) أن قوله تعـالى (**وَإِنَّ لَـهُ عِنْـدَنٰا لَزُلْفىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ**)[2] لا يلائم العشق والقتل.

فثبت بهذه الوجوه براءة نبي اللّه داود عما نسبه إليه الجهال.

(فــإن قلت) إن كثــيرا من المحــدثين روى هــذه الحكاية[3] (قلت)

---

1 ـ سورة ص ، الآية 24.

2 ـ سورة ص ، الآية 40.

3 ـ أما هـذه الـدعوى الباطلة فهي مــردودة على من ينسب ذلك الى أرباب الحديث فان أحـدا من أصـحاب الكتب الصـحيحة لم يـذكرها ولم يعرج عليها فليس من الانصاف العلمي أن يتهم المحدثون بهــذه التهمة الشنيعة ، فان ذلك انما يصدر من قلب موغـور عليهم مملـوء بالضـغينة لهم ، والقصة انما ذكرها المفســرون عن الاســرائيليات. قــال الحافظ ابن كثير في تفسيره قد ذكر المفســرون هاهنا قصة اكثرها مـأخوذ عن الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصـوم حـديث يجب اتباعـه. ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لانه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. ويزيد وان كان من الصالحين ولكنه ضعيف الحديث جـدا عند الأئمة ا هـ فـــانظر أيها المنصف الى كلام أهل العلم الـــذين لا يلقـــون القول جزافا ولا يقدمون آراءهم على العلم بـدعوى خـبر الآحـاد وانه لا يفيد الا الـدعاوى الواهنة ولعل المصــنف أراد بلفظ المحــدثين ـــ بضم الميم وسكون الحاء وفتح الدال ـ وقال الامام أبو محمد بن حــزم ـــ بعد أن ساق الآيات ـ : وهذا قول صادق صحيح لا يدل على شــيء مما قاله المستهزءون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود ، وانما

هــذه الــدلائل البــاهرة لما أبطلت قــولهم وجب القطع بفسـادها. فـالعجب اتفـاق النـاس على أن خـبر الواحد لا يفيد إلا الظن ، والظن إنما ينتفع به في العمليــات وهــذه المسألة ليست من العمليـات ، فصـارت روايتهم سـاقطة العبرة من كل الوجوه. وعن سعيد بن المسـيب والحـارث الأعور أن عليا رضي اللّه عنه قال : « من حدثكم بحـديث داود عليه السـلام على ما يرويه القصــاص جلدته مــأتين وســتين وهو حد الفرية على الأنبيــاء ». وروي أن واحــدا ذكر ذلك الخــبر عند عمر بن عبد العزيز وعنــده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه تعالى فما ينبغي أن نلتمس خلافها ، وإن كـان على ما ذكـرت وكف اللّه عنها سـترا على نبيه فيما ينبغي إظهارها عليه ، فقــال عمر : ســماعي هــذا الكلام أحب إلي مما طلعت الشمس عليه.

فـإذا ثبت هـذا فلنبحث أنه هل في الآية ما يـدل على صـدور الصـغيرة عنه أم لا؟ فنقـول : قـال كثـير من أهل الحق قـول اللّه (**هَـلْ أَتٰـاكَ نَبَـأُ اَلْخَصْـمِ**) [1] أخـبر عن جماعة أنهم تسـوروا قصـره قاصـدين قتله والإسـاءة إلى أهله فدخلوا قصره في وقت ظنـوا أنـه غافـل. فلما رآهم داود عليه السلام خافهم لما تقرر في العرف أنه لا يتسور أحد دار غيره بغير أمره

كـان ذلك الخصم قوما من بـني آدم بلا شك مختصـمين في نمـاذج من الغنم على الحقيقة بينهم. بغى أحـدهما على الآخر على نص الآية. ومن قال : أنهم كانوا ملائكة معرضين بـأمر النسـاء فقد كـذب على اللّه عز وجل ، وقوله ما لم يقل وزاد في القــرآن ما ليس فيه وكــذب اللّه عز وجل ، وأقر على نفسه الخبيثة انه كذب الملائكة ، لان اللّه تعالى يقول (**هَلْ أَتٰاكَ نَبَأُ اَلْخَصْمِ**) فقـال هو : لم يكونـوا قط خصـمين ، ولا بغي بعضـهم على بعض ولا كـان قط لاحـدهما تسع وتسـعون نعجة ولا كـان للآخر نعجة واحــدة ، ولا قـال له : (**أَكْفِلْنِيهٰا**) فـاعجبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم ، ونعـوذ باللّه من الخـذلان ثم كـان ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة.

1 ـ قصة في سورة الآية ص 21 ـ 26.

إلا لسـوء يريـده من قتله أو لمكـاره على أهله أو سـرقة ماله خصوصا إذا كـان صـاحب الـدار شخصا معظما فلما رأوه مستيقظا انتقض عليهم التـدبير فـاقترح بعضـهم عند فزعه خصـومة لا أصل لها زاعما أنهم قصـدوه لاجلها دون ما توهمه فقالا (خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُـنٰا عَلىٰ بَعْضٍ) ثم ادعى أحدهما على الآخر مـالاً. فقـال (**إِنَّ هٰـذٰا أَخِي لَـهُ تِسْـعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَـةً**) الآية فقـال داود عليه السـلام (**لَقَـدْ ظَلَمَكَ**) الآية ثم قال اللّه تعالى (**وَظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ**) أي امتحناه. لكنه لم يعمل على ظاهر الحال ، ولم ينتقم منهم مع كونه ذا أيد وقـــوة وســـلطان وقـــدرة بل صـــار مستغفرا للقوم الذين قصدوه وطالبا من اللّه تعالى العفو عنهم وذلك إن اللّه تعالى لم يقل إنه أذنب ولا أنه استغفر لنفسه فـإن المسـتغفر قد يسـتغفر لنفسه تـارة ولغـيره أخرى. قال اللّه تعالى في وصف الملائكة (**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا**) [1] وقـال أولاد يعقـوب لوالـدهم (**يٰا أَبٰانَا اِسْتَغْفِرْ لَنٰا**) [2] ثم قال اللّه تعالى (**فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِـكَ**) [3] معنى غفرنا لأجل حرمة داود لأولئك وقبلنا شـفاعته في التجـاوز عنهم فهـذا الـذي قلنـاه مما ينطبق عليه لفظ الكتـاب العزيز ، فلا يحتـاج فيه إلى المجـاز من حمل الخصـمين على الملكين ، وادعاؤهما الخصـومة على التمسك لا على التحقيق ، وحمل النعجة على المـرأة ويناسبه أمر رسولنا عليه الصلاة والسلام بالاقتـداء به في قوله (**فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُـوا اَلْعَـزْمِ مِنَ اَلرُّسُـلِ**) [4] وتأدب به عليه الصلاة والسلام يوم أحد لما هشمت ثنايـاه فقال « اللهم اهد قومي فإنهم

1 ـ سورة غافر الآية 7.
2 ـ سورة يوسف الآية 97.
3 ـ سورة ص الآية 25.
4 ـ سورة الاحقاف الآية 35.

لا يعلمـــون » [1] ويناســـبه ما حصل عقيبه من المنصب العظيم وهو خلافة اللّه في أرضه.

ووجه آخر : لعل الاسـتغفار إنما كـان لأن القـوم لما تسـوروا ظن داود عليه السـلام بهم أنهم يقصـدون قتله فلما لم يظهر الأمر كما ظن ندم على ذلك الظن ، فكـان الاسـتغفار عليه ، أو لأنه لما هضم نفسه ولم يـؤدبهم ولم ينتقم منهم مع القدرة التامة دخله شـيء من العجب على كمـــال حلمه ، فكـــان الاســـتغفار منه لأن العجب من المهلكـات. فهـذا قـول لا دلالة في الآية على شـيء من الزلات وهو الحسن عندي.

(القـول الثـاني) وهو قـول من سـلم دلالتها على الصغيرة فلهم فيها وجوه خمسة :

(الأول) أنه عليه السـلام كـان عالما بحسن امـرأة أوريا فلما ســمع أنه قتل قل غمه لميل طبعه إلى نكـــاح زوجته ، فعوتب عليه بنزول الملكين.

(الثـاني) : أن أهل زمـان داود عليه السـلام كـان يســأل بعضـــهم بعضا أن يـــنزل عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان ذلك جائزا فيما بينهم ، فاتفق أن عين داود عليه الســلام وقعت على امـــرأة أوريا ، فأحبها فســـأله الـنزول عنها فاسـتحى أن يـرده ، ففعل فتزوجها وهي أم سـليمان عليه السـلام ، فقيل لـه. إنك مع ارتفـاع قـدرك وكثرة نسـائك لم يكن ينبغي لك أن تسـأل رجلا ليست له إلا امــرأة واحــدة الــنزول عنها ، بل كــان الــواجب قهر نفسك.

(الثـــالث) أن أوريا خطبها ثم خطبها داود عليه الســلام فـــآثره أهلها فكـــان ذنبه أنه خطب على خطبة المؤمن مع كثرة نسائه.

---

1 ـ ما ورد عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في يوم أحد أنه قال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم (بخاري 5 /ـ 35) وما ذكر هنا حكايته صـلّى اللّه عليه وسلّم عن نبي من الأنبياء (بخاري 8 ـ 51 ، ابن حنبل 1 / 380).

(الرابع) أن داود عليه السلام كان مشتغلا بعبادته فأتاه رجل وامرأة يتحاكمان فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها ليحكم لها أو عليها ، وذلك نظر مباح فمالت نفسه إليها ميل الخلقة ففصل بينهما وعاد إلى عبادته فشغله الفكر في أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

(الخامس) أن الصغيرة منه إنما كانت بالعجلة في الحكم قبل التثبت وكان يجب عليه لما سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ولا يقضي عليه قبل المسألة.

والمجيب بهذا الجواب قال : ان الفزع من دخولهما عليه في غير وقت العادة أنساه التثبت والتحفظ والقائلون بهذا القول حملوا التحاكم على ضرب المثال ، وإلا فيلزم إقدام الملك على الكذب وحملوا النعاج على النسوة ، وكل ذلك عدول عن الظاهر من غير دليل.

(فإن قيل) هب أنه لا دلالة في الآية على الذنب البتة ولكن مسارعته إلى تصديق أحد الخصمين حلى حكمه يكون الآخر ظالما غير جائز (قلنا) ليس في القرآن أنه صدقه من غير ظهور الحجة ، إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك.

(الشبهة الثانية) تمسكوا بقوله تعالى : (**وَدٰاوُدَ وَسُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِي اَلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ اَلْقَوْمِ وَكُنّٰا لِحُكْمِهِمْ شٰاهِدِينَ فَفَهَّمْنٰاهٰا سُلَيْمٰانَ**) [1] قالوا فلو كان داود عليه السلام مصيبا في حكمه لما خص اللّه تعالى سليمان بقوله : (**فَفَهَّمْنٰاهٰا**).

جوابه : أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر لا يدل على أن داود بخلافه فإن دليل الخطاب في اللقب لا يفيد بإجماع المحققين ، ثم في هذا التخصيص فائدتان سوى ما ذكروه :

1 ـ سورة الأنبياء ، آية 78 ـ 79.

(الأولى) أن داود عليه السلام كان متوقفا لتعـارض الأمارات وسليمان لم يكن كذلك.

(الثانية) أن داود عليه السلام كـان عالما به لكنه ما أفـتى امتحانا لابنه سـليمان رجـاء أن يفـتي به ويسـتخرج حكمه ويكون تخصيص ابنه سليمان بأن فهمه ذلك تقريـرا لعين والده وإعلاء درجته في الناس وإنما أعرض عن ذكر داود عليه السلام للعلم باشـتهاره فيما بين الخلق بمعرفة الأحكـام ، ثم إنه تعـالى خلف الكلام بقوله : (**وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً**) [1] لئلا يتوهم أنه كان جـاهلا به وحاكما فيه بغير الصواب.

1 ـ سورة الأنبياء آية 78 ـ 79.

قصة سليمان عليه السلام

(وفيها شبهات ثلاثة)

(الأولى) تمسكوا بقوله تعالى : (**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ**) الآيات [1] قالوا : ظاهر الآية يدل على أن مشاهدة الخيل ألهته عن ذكر ربه حتى روي أن الصلاة فاتته.

(جوابه) نذكر تفسير الآية فإن بذكره تزول الشبهة ، فنقول : المخصوص بالمدح في (نعم العبد) محذوف فقيل : هو سليمان ، وقيل : هو داود عليهم السلام ، والأول أولى ، لأنه أقرب المذكورين ثم علل كونه ممدوحا بكونه أوابا رجاعا إليه بتوبته ، أو مئوبا بالتسبيح مرجعا لأن كل مئوب أواب (إذ عرض عليه) أي على سليمان عليه السلام لأنه أقرب المذكورين ـ الصفون ـ الوقوف على ابن قتيبة وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية فإذا وقفت كانت مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعا في جريها (أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي) وفيه ثلاثة أوجه :

(الأول) أن تضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أتيت حب الخير عن ذكر ربي.

---

1 ـ سورة ص ، الآيات 31 ـ 33.

(الثـاني) أحببت بمعـنى لـزمت الخـير عن ذكر ربي عن كتـاب ربي وهو التـوراة أو غيرهـا. فكما أن ارتبـاط الخيل في كتابنا ممدوح فكذا في كتابهم ، وهـذا أولى من الأول ، لأن فيه تقرير الظاهر.

(الثالث) أن الإنسان قد يقول : إني أحب كذا ولكني أحب أن لا أحبه كالمريض الذي يشـتهي ما يؤذيه فأما من أحب شـيئا وأحب محبته له كـان ذلك غاية المحبة ، فقوله : أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيـل. وهـذا الوجه الذي استنبطته أظهر الوجوه. والضـمير في (حـتى تـــوارات) وفي (ردّوها) يحتمل أن يكـــون عائـــدا إلى الشمس لأنه جـرى ذكر ما له تعلق بها وهي العشى ، وأن يكـون عائـدا إلى الصـافنات وهـذا أولى الـوجهين ، لأنها مذكورة صحيحا دون الشمس ولأنه أقـرب في الـذكر من لفظ العشى ، وعند ذلك يفرض هاهنا احتمالات أربعة.

(الأول) أن يعود الضمير إلى الصافنات ، كأنه قيل : حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات إلى.

(الثـاني) أن يعـود إلى الشـمس ، كأنه قيل : حـتى تورات الشمس بالحجـاب ردوا الشـمس ، قيل : إنه عليه الصــلاة والســلام لما فاتته الصــلاة ســأل اللّه أن يــرد الشــمس وهــذا بعيد لأن قوله (ردوها) خطــاب للجمع والأنبياء لا يخاطبون اللّه تعالى بمثل هذا.

(الثالث) أن يعـود الأول إلى الشـمس والثـاني إلى الصـافنات. وهو الـذي ذهب إليه الأكـثرون كأنه قيل حـتى توارت الشمس بالحجاب. ردوا الصـافنات إليّ. وهـذا أبعد لأنهما ضميران وردا في موضع واحد فتفريقهما لا بالـدليل غير جائز.

(الرابع) أن يعـود الأول إلى الصـافنات والثـاني إلى الشمس. وهذا

مما لم يـــذهب إليه أحد (**فَطَفِــقَ مَسْــحاً بِالسُّــوقِ وَالْأَعْنٰــاقِ**) فجعل يمسح مســحا فــالأكثرون أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعـني يقطعها وهـذا بعيد ، لأنه لو كـان المسح بالسـوق والأعنـاق هو القطع لكـان القائل إذا قــال : مســحت رأس فلان ويــده فهم منه أنه قطعها ولكان معـنى قوله (**وَامْسَـحُوا بِرُؤُسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ**) [1] القطع بل لو قيل مسح رأسه بالســـــيف فربما فهم منه ضـرب العنق ، فأما إذا لم يـذكر السـيف فإنه لا يفهم منه الضــــــــرب والقطع البتة ، على أن قوله : مسح عنقه بالسـيف لا يفيد القطع إلا على سـبيل المجـاز. فكيف إذا ترك ذكر السيف؟

فإذا عرفت التفسير زعمت الحشوية أنه عليه السلام غــزا أهل دمشق فأصــاب ألف فــرس فقعد يوما بعد ما صـلى الأولى على كرسـيه واستعرضـها فلم تـزل تعـرض عليه حتى غفل عن صـلاة العصر ، أو عن ورد كـان له من الذكر وقت العشى ، حتى غربت الشمس وهو المـراد من قوله تعــالى (تــوارت بالحجــاب) ثم اســترد الخيل ، وهو المراد بقوله (ردوها علي) ثم عقرها تقربا إلى اللّه تعـالى وهو المراد بقوله (**فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنٰاقِ**).

واعلم أن هذه الحكاية مع أنه لا دلالة عليها البتة ففي الآية ما ينافيها من وجوه خمسة :

(الأول) أنه تعالى وصف سـليمان عليه السـلام في مقدمة الآية بـأن اللّه تعـالى وهبه لـداود عليه السـلام في معـرض الإكــرام [2] وذلك ينــافي أن يعقب ذلك بــذكر أن سليمان كان تاركا للصلاة وبأنه أواب حال ما

---

1 ـ سورة المائدة ، آية 6.

2 ـ بل وقوله « نعم العبد » من أدل الـدلائل على أن من أبعد الامـور أن يشغل بالدنيا وحبها عن ذكر اللّه وطاعته.

عرضت عليه الصـافنات فـإن لفظة (إذ) دالة على ذلك ، وكونه أوابا وتاركا للصلاة في زمان واحد محال.

(الثـاني) أن قوله (**أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَيْـرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي**) لو فسرناه بـأني لـزمت الخـير عن ذكر ربي لكـان ذلك منافيا لما أرادوه ، أما إذا فســرناه بــأني أتيت حب الخير عن ذكر ربي فربما استقام لهم ما ذكروه ، لكنا بينا أن الأول أولى.

(الثـالث) أن رجــوع الضــمير في (تــورات) إلى الشمس يقتضي ترجيح غير المذكور ، وترجيح البعيد على القريب ، وهو غير جائز وعلى تسليم ذلك فالحكم برجــوع الضــمير في (ردوهــا) إلى الصــافنات تفريق للضــمائر المشاكلة على أشياء متباينة.

(الرابع) أن قوله تعالى (**فَطَفِقَ مَسْـحاً**) لا دلالة فيه البتة على قولهم.

(الخامس) أن هذه السورة إنما وردت في مناظرة الكفار ، والمقصود من هذه القصص أمر النبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم بالصـبر على مشـاق التكـاليف ، ومتـاعب الطاعـات. وذلك المعـنى لا يليق به ذكر أن الأنبيـاء كـانوا تاركين للصلاة ومتهالكين في حب الدنيا بل التفسير الحق الذي ينطبق اللفظ عليه أن ربـاط الخيل منـدوب إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا. ثم إن سليمان عليه السـلام جلس لتعــرض عليه الخيل ، ثم بين أن ذلك لم يكن لحب الدنيا لأن اللّه تعالى أقره على ما قال (**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَيْـرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي**) ثم أمر بركضــها حــتى تــوارت بالحجاب أي حتى غابت عن بصره ثم أمر بردها (**فَطَفِـقَ مَسْحاً**) فطفق يمسح سـوقها وأعناقها تشـريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعــوان في دفع العــدو. أو لأنه أراد أن يــبين عن نفسه أنه في السياسة وحفظ الــدين والدنيا بحيث لا يخفى عليه شيء

من مصـالحه ، أو لأنه كـان أعلم بـأحوال الخيل من غـيره يفحصها ويمسـحها ليعلم حالها في الصـحة والسـقم فهـذا الذي ذكرنــاه كلام ينطبق عليه اللفظ ويلائمه ما قبل الآية وما بعدها. وفيه تعظيم الأنبياء فكان أولى بما يكون بالضد منه.

(فإن قلت) فكيف تعمل باطباق الأكـثرين على تلك الحكاية؟ (قلت) الكلام في تفسير كتاب اللّه تعـالى غـيره في حكاية منفصلة عن كتـاب اللّه تعـالى. ومقصـودنا الآن هو الأول. وقد بينا أنه لا دلالة في الآية على تلك الحكاية البتة ، بل ظاهرها ينافيها من وجـوه كثـيرة. فـإذن لم يبق إلا أن يقال : إنما حكاية منفصلة عن كتاب اللّه تعالى.

(فإن قلت) فما قولك فيها؟

فنقول : الـدلائل البـاهرة عن المعقـول والمنقـول قد دلت على وجـوب عصـمة الأنبيـاء فاتباعها أولى من اتبـاع حكايات لا ندري أنها في أول الأمر من رئيس الملاحـدة أو موضوعات اليهود. وباللّه التوفيق.

(الشبهة الثانية) تمسكوا بقوله تعالى : (**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمٰانَ وَأَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً**) الآية. [1]

(جوابه) أما قوله : (**وَلَقَـدْ فَتَنّا سُـلَيْمٰانَ**) أي امتحنــاه ، وأما قوله : (**وَأَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِـيِّهِ جَسَـداً**) فقد اختلفـوا فيه أما الـذي يقوله المحققـون فأحد أمـور ثلاثة :

(الأول) أن النبي عليه الصلاة والسـلام قـال : « إن سـليمان قـال : لأطـوفنّ الليلة على مائة امـرأة فتلد كل منها غلاما يقاتل في سـبيل اللّه ولم يقل إن شـاء اللّه ، فطاف ولم تحبل إلا واحدة

---

1 ـ سورة ص ، الآية 34 ـ 35.

فولدت نصف غلام فجـاءت به القابلة وألقته على كرسـيه بين يديه. ولو قال إن شاء اللّه لكـان كما قـال [1] » فكـان الابتلاء لأجل تركه الاستثناء.

(الثاني) أنه امتحنه بمرض شـديد ، فصـار جسـدا لا حراك به مشرفا على الموت ، كما يقال : لحم على وضم [2] وجسد بلا روح على معـنى شـدة الضـعف ، والتقـدير : وألقينا جسده على كرسيه ، فحذف الهاء للاختصار.

(الثالث) ولد لسليمان ولد ، فاحتـال الشـيطان في قتله ، وقـالوا : نخـاف أن يعـذبنا كما يعـذبنا أبـوه ، فـأمر السـحاب فحملته وأمر الـريح فغذته خوفا من الشـياطين فمـات الولد ، فـألقى ميتا على سـريره ابتلاء حين خـاف الشياطين.

فأما الذي يـذكره الأكـثرون من القصـاص من حـديث الخـاتم وآصف فتلك الحكاية باطلة لم يـدل على صـحتها شيء فلا يجوز الالتفات إليها.

(الشـبهة الثالثة) تمسـكوا بقوله : (**رَبِّ اِغْفِـرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاٰ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**) [3] قالوا : هـذا حسد فكيف يليق بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم؟

(جوابه) من وجوه سبعة :

(الأول) أن معجـزة كل نـبي تجب أن تليق بـأحوال أهل زمانه ،

1 ـ هذا الحديث رواه البخاري ومسلم بغير هذا اللفظ عن أبي هريرة.
2 ـ الوضم. الخشبة يوضع عليها اللحم ليأخذ كل من مر به منه لا يمتنع على أحد الا أن يذب عنه ويدفع.
3 ـ سورة ص آية 35.

ولما كانت منافسة أهل زمانه بالمال والجـاه طلب مملكة فائقة على كل الممالك لتكون معجزة له.

(الثاني) أنه لما مرض ثم رجع إلى الصحة عرف أن خيرات الـدنيا وما فيها صـائرة إلى الغـير بـإرث أو غـيره ، فسـأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه ، وذلك ملك الآخرة.

(الثـالث) أن في مـراتب الرياضـات والمجاهـدات كثرة ولكل واحد من السالكين اختصاص بواحد منها فكأنه كان اختصاص سليمان عليه السـلام بمقـام رياضة النفس ومراقبتها ومحاسبتها أشد ، ومعلوم أن الدنيا حلوة خضرة والامتنـاع عن الانتفـاع بها حـال القـدرة أشق من الامتنـاع حـال العجز فكأنه عليه السـلام قـال : أعطـني من الـدنيا أكمل المـراتب حـتى أتحمل في الاحـتراز عنها أعظم المشاق.

(الرابع) إن من الناس من يقول الاحتراز عن لذات الـدنيا أصـعب لأنها نقد ولـذات الآخـرة نسـيئة وتـرجيح النسيئة على النقد شاق ، فهو عليه السلام رد على هـؤلاء الباطلين. وقال (**وَهَبْ لِي مُلْكاً**) الآية ، حتى تـروا كيف استحقره في جنب الالتذاذ بطاعة المولى.

(الخـامس) هو أن الوصـول إلى اللّه تعـالى على نوعين : أحدهما ـ وهو الأكمل ــ أن يرفعه اللّه إليه ابتـداءً فضلا منه ورحمة من غير تكليف شـيء من المتـاعب وهو طريقة رسولنا عليه الصلاة والسلام على ما قاله تعـالى : (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً**) [1].

(والثاني) أن يتكلف العبد الذهاب إليه وهو الطريقة التي حصل

1 ـ سورة الاسراء آية 1.

أعلاها لموسى عليه السلام في قوله (**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا**) [1] وأن سليمان عليه السلام على شرع موسى عليه السلام وطريقته فكان أبدا في الرياضة ، والإنسان لا يفرغ قلبه عن شيء ما لم يجربه فكأن نفس سليمان عليه السلام كانت ملتفته إلى مملكة الدنيا فقال (**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً**) الآية ، حتى أذوقه فيفرغ قلبي عنه فيزول شغل الالتفات إليه ، فيخلص السر إلى طاعتك والاشتغال بعبادتك.

(السادس) إن للسيارين إلى اللّه تعالى تارات ، فتارة يختارون مقام التواضع ، وذلك إذا ما نظروا إلى أنفسهم من حيث هم هم ، وتارة مقام الاستعلاء وذلك إذا ما رأوا أنفسهم من حيث أنهم بالحق ، فلا يبعد أن يكون هذا الخاطر إنما ورد على سليمان عليه السلام في المقام الثاني.

(السابع) وهو جواب المتكلمين إنه عليه السلام كان مأذونا من اللّه فيه وعلى هذا التقدير لا يكون فيه عتب.

1 ـ سورة الاعراف آية 143.

قصة يونس عليه السلام

تمسكوا بقوله تعالى : (**وَذَا اَلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْـهِ فَنٰـادىٰ فِي اَلظُّلُمٰـاتِ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُـبْحٰانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ اَلظّٰـالِمِينَ**) [1] من ثلاثة أوجه :

(الأول) أنه ذهب مغاضـبا وذلك كـان محظـورا. ألا تـرى أن اللّه تعـالى قـال : (**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاٰ تَكُنْ كَصٰـاحِبِ اَلْحُـوتِ**) [2] فــذلك يقتضي أن ذلك الفعل من يونس عليه السلام كان محظورا.

(الثـاني) قوله (**فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْـهِ**) وذلك يقتضي كونه شاكا في قدرة اللّه تعالى.

(الثالث) قوله : (**إِنِّي كُنْتُ مِنَ اَلظّٰالِمِينَ**).

(الجـــواب) عن الأول أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضـبا ولم تـدل على أنه غاضب اللّه ، وكيف ومغاضـبة اللّه تعالى لا تجـوز على أحد من المسـلمين ، فكيف على النبي عليه السلام؟! فلعله إنما خرج مغاضـبا لقومه ، فلم قلتم إن ذلك معصية؟ أما قوله : (**وَلاٰ تَكُنْ كَصٰاحِبِ**

1 ـ سورة الأنبياء آية 87.
2 ـ سورة القلم آية 48.

اَلْحُوتِ) فليس لأنه ثقلت عليه أعباء النبوة لضيق خلقه ، بل المـراد أنه لم يقو على الصـبر على تلك المحنة الـتي ابتلاه اللّه بها ولو صــبر لكــان أفضل فــأراد اللّه تعــالى بمحمد صــلّى اللّه عليه وســلّم أفضل المنــازل وأعلاها (وعن الثــاني) أن الشك في قــدرة اللّه تعــالى كفر ، ولا نزاع أنه لا يجوز اتصاف الأنبياء به ، بل المراد أن لا نضيق الأمر عليه [1] ، قال اللّه تعالى (**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُـهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتٰاهُ اَللّهُ**) [2] وقـال (**اَللّـهُ يَبْسُـطُ اَلـرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَقْـدِرُ**) [3] أي يوسع ويضـيق ، وقـال (**وَأَمّا إِذٰا مَا اِبْتَلاٰهُ فَقَـدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَـهُ**) [4] أي ضــيقه (وعن الثالث) فالجواب عنه ما تقدم من قصة آدم عليه السلام.

---

1 ـ ويمكن أن تفسر القدرة بالقضاء أي فظن أن لن نقضي عليه بشدة وهو قـول مجاهد وقتـادة والضـحاك والكلـبي ورواية العـوفي عن ابن عبـاس ، أما التفسـير الـوارد اعلاه بمعـنى لن نضـيق عليه فقد اختـاره المفسر لانه حجة لمذهبه في خلق الافعال ، كما صرح في تفسيره 6 / 150 قائلا أن هذا يدل على أن يونس عليه السلام مخير أن شـاء أقـام وان شاء خرج وان اللّه لا يضيق عليه في اختياره.
2 ـ سورة الطلاق آية 7.
3 ـ سورة الرعد آية 26.
4 ـ سورة الفجر آية 16.

قصة لوط عليه السلام

تمســكوا بقوله تعــالى إخبــارا عنه عليه الســلام : (**هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِي إِنْ كُنْتُمْ فٰـاعِلِينَ**) [1] عـرض بالفاحشة مع بناته وذلك كسرة دالة على سقوط النفس.

(جوابه) قال الشافعي رحمه اللّٰه : الكلام لم يجمل في غير مقصوده ويفصل في مقصوده ، فلما كـان غرضه ترجيح النساء على الغلمان لا جرم لم يتعرض لذكر النكاح وإن كـان معتـبرا في نفس الأمر ، والـدليل على أن هـذا الشرط كان معتبرا وجهان :

(الأول) قال : (**هُنَّ أَطْهَرُ**) [2] ولا طهارة في الزنا.

(الثـاني) أنه لو دعا نفسه إلى الزنا لكـان لهم أن يقولوا الزنا واللواطة حرامـان على مـذهبك ، فـأي فائـدة في الدعوى من أحدهما إلى الآخر؟

(فإن قيل) هب أنه كـذلك ولكن كيف يجـوز تـزويج المسلمة من الكافر؟

(جوابه) من وجوه أربعة :

---

1 ـ سورة الحجر آية 71.
2 ـ سورة هود آية 78.

(الأول) أن ذلك مما يختلف بـاختلاف الشــرائع. ألا ترى أن النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم زوج ابنته زينب من أبي العاص وهو كافر [1].

(الثاني) أنا كما أثبتنا ضمنا فكذلك إسلام الزوج.

(الثالث) أنه عليه السلام أراد موافقتهم وتسـويفهم وذلك لأن الرسل من الملائكة عليهم السلام كانوا أخـبروه بهلاكهم عند الصـبح ، كما أخـبر اللّه عنه (**وَقَضَـيْنَا إِلَيْـهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ**) [2].

(الرابع) أنه يكفي في الإضافة أدنى سبب؛ فالبنـات بنــات الأمة إلا أنه أضــافهن إلى نفسه لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كالأب لأمتهم.

---

1 ـ أبو العـاص بن الربع كـانت خالته خديجة رضي الله عنها أخذ أسـيرا في بدر مع المشركين فمن عليه المسلمون على أن يترك زينب تهاجر الى المدينة ففعل ، ثم لم يلبث أن جاء مسـلما بعد هجـرة زينب بسـنة فردها عليه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالنكاح الأول. وقد كـان تزوجها قبل البعثة النبوية.

2 ـ سورة الحجر آية 66.

قصة زكريا عليه السلام

تمسكوا بقوله تعــالى : (**يٰا زَكَرِيّا إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاٰمٍ إِسْمُهُ يَحْيىٰ لَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ مِنْ قَبْـلُ سَـمِيًّا. قٰـالَ رَبِّ أَنّى يَكُونُ لِي غُلاٰمٌ وَكٰانَتِ اِمْرَأَتِي عٰـاقِراً وَقَـدْ بَلَغْتُ مِنَ اَلْكِبَرِ عِتِيًّا قٰالَ كَذٰلِكَ قٰالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**) [1]

قالوا : قد شك في قدرة اللّه تعالى.

(جوابه) لو كــان الأمر على ما قــالوه لكــان زكريا عليه السلام غير عاقل لما سأل اللّه ذلك فلما إضافة إليه اســتنكره فاســتبعد قدرته عليه كـــان ذلك من أفعـــال المجانين ، فثبت أن الأمر بخلاف ما قـالوه وذلك أن زكريا عليه الســـلام لم يســـأل ربه أن يهب له ولـــدا من جهة الـولادة وإنما سـأله أن يهب له ولـدا من عنـده فقـال : (**فَهَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا**) [2] وقــال في آل عمــران : (**هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**) [3] إنما سأل ذلك عند ما أخبرته مريم بأن رزقها يأتيها من عند اللّه فسأل ولـدا من عنده فلما بشرته الملائكة بالولد سأل كيف ذلك يقع على كبره ، وكيف وكانت امرأته عاقرا؟ فقـال : (**كَذٰلِكَ اَللّـهُ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ**) [4].

---

1 ـ سورة مريم ، آية 7 ـ 9.
2 ـ سورة مريم ، آية 5.
3 ـ سورة آل عمران ، آية 38.
4 ـ سورة آل عمران ، آية 40.

قصة عيسى عليه السلام

(وفيها شبهتان) (الأولى) تمسكوا بقوله تعـالى : (**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّـاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ**) [1] من وجوه :

(الأول) : أن عيسى عليه السلام إن كان قـال هـذا الكلام فالإشكال قائم. وإن لم يقل كان الاستفهام عبثا.

(الثاني) : أن النفس هي الجسد فقوله تعالى (**وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**) [2] ظاهره يوهم إثبــات الجسم للّه تعالى.

(الثالث) : أن كلمة (في) للظرفية ، وهي لا تجيء إلا في الأجسام.

(والجواب) : عن الأول أنه عليه السلام ما قال ذلك وللاستفهام فائدة وهي تقريع من ادعى ذلك من النصـارى ، وعن الثاني أن النفس في اللغة بمعـنى الـذات ، يقـال : نفس الشيء ذاته ، وعن الثالث أن المـراد حلـول الصـفة في الموصوف.

---

1 ـ سورة المائدة ، آية 116.
2 ـ سورة المائدة ، آية 116.

(الشـــبهة الثانية) في قوله تعـــالى (**إِنْ تُعَــذِّبْهُمْ فَــإِنَّهُمْ عِبٰـــادُكَ وَإِنْ تَغْفِــرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيـــزُ اَلْحَكِيمُ**) [1].

(الجواب) المقصود من هذا الكلام تفويض الأمر إلى اللّه تعـالى بالكلية وتـرك الاعـتراض وتحقيق معـنى (**لاٰ يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ**) [2].

---

1 ـ سورة المائدة ، آية 118.

2 ـ سورة الأنبياء آية 23 وقوله هذا في الجواب بناء على ما وضحه في تفسيره 3 /ـ 486 :ـ أنه يجوز على مـذهبنا من الله أن يـدخل الكفـار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النـار لان الملك ملكه ولا اعـتراض لاحد عليه.

قصة سيدنا ومولانا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم

(وفيها شبه)

(الأولى) تمسـكوا بقوله تعـالى (**وَوَجَـدَكَ ضَـالاًّ فَهَدىٰ**) [1].

(الجواب) أن الضلال هو الذهاب والانصـراف ولا بد من أمر يكون منصـرفا عنه وهو غـير مـذكور ، والخـبر ان بغير ما يوافق الدليل وهو أمور أربعة :

(الأول) وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها ويؤكـده قوله تعالى (**مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتٰابُ وَلاَ اَلْإِيمٰانُ**) [2].

(الثاني) وجدك ضالاَ عن المعيشة وطريق الكسب.

(الثالث) وجـدك ضـالا في زمـان الصـبى في بعض المفاوز.

(الرابع) وجـدك ضـالا أي مضـلولا عنه في قـوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك كما يقال : فلان ضـال في قومه إذا كان مضلولا عنه.

الشبهة الثانية

تمسكوا بقوله تعالى : (**وَمٰا أَرْسَـلْنٰا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُولٍ**

---

1 ـ سورة الضحى ، آية 7.
2 ـ سورة الشورى آية 52.

وَلاٰ نَبِيٍّ إِلاّ إِذٰا تَمَنّى أَلْقَى اَلشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ) [1]
قـالوا : إن ظـاهر الآية يـدل على أن الشـيطان ملق في قراءة الأنبياء ما يـؤدي إنى الشـبهة فـإذا جوزنا ذلك ارتفع الوثوق ، روي أنه عليه الصـلاة والسـلام شق عليه ما رأى من مباعــدتهم عما جــاءهم به فتمــنى في نفسه أن يأتيه من اللّه تعــالى ما يقــارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يـوم في نـاد من أندية قـريش كثير أهله ، وأحب يومئذ أن لا يأتيه شيء من اللّه فينفـروا عنه ، وتمنى ذلك فأنزل اللّه تعالى (**وَاَلنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ**) [2] فقرأها رســول اللّه صــلّى اللّه عليه وســلّم حــتى بلغ (**أَفَـرَأَيْتُمُ اَللاّٰتَ وَاَلْعُـزّٰى وَمَنٰـاةَ اَلثّٰالِثَـةَ اَلْأُخْـرىٰ**) [3] ألقى الشــيطان على لســانه ما كــان يحــدث به نفسه ويتمنــاه « تلك الغرانيق العلى وإن شـفاعتهن لـترتجى » فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول اللّه صــلّى اللّه عليه وسلّم في قراءته فقرأ السورة كلها وســجد في آخرها فسـجد المسـلمون وسـجد جميع من في المسـجد من المشركين.

فلم يبق في المســجد مـؤمن ولا كـافر إلا سـجد إلا الوليد ابن المغـيرة وأبو أحيحة سـعيد بن العـاص ، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شــيخين كبــيرين فلم يســتطيعا الســجود ، وتفـرقت قـريش وقد سـرهم ما سـمعوا وقـالوا : قد ذكر محمد عليه الصــلاة والســلام بآلهتنا بأحسن الــذكر. فلما أمسى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أتـاه جبريل عليه السلام وقال : ما ذا صنعت؟ تلوت على النـاس ما لم آتك به عن اللّه ، وقلت ما لم أقل لــك؟! فحـزن رســول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلّم حزنا شـديدا وخـاف من اللّه خوفا كثيرا فأنزل اللّه هذه الآية [4].

---

1 ـ سورة الحج آية 52.
2 ـ سورة النجم آية 1.
3 ـ سورة النجم آية 19.
4 ـ قال الحافظ ابن كثير في التفسير : قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق وما كان من رجـوع كثـير من مهـاجرة الحبشة ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا

(الجواب) الـذي يـدل على أنه عليه السـلام ما غيّر وما بدّل وجوه خمسة :

(الأول) قوله تعـالى : (**وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ اَلْأَقٰاوِيلِ لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ اَلْوَتِينَ**) [1].

(الثاني) (**قُلْ مٰا يَكُـونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَـهُ مِنْ تِلْقٰـاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ**) [2].

(الثالث) (**وَإِنْ كٰادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ اَلَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنٰا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَتَّخَـذُوكَ خَلِيلاً وَلَـوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ**

ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها من وجه صحيح.

وقال القسطلاني في شرح البخـاري : وقد طعن في هـذه القصة وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن إسـحاق ــ وقد سـئل عنها ــ هي من وضع الزنادقة ، وقال القاضي عياض : أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصـحة ولا رواه أحد بسـند متصـل. وانما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غـريب المتلقفـون عن الصـحف كل صحيح وسقيم. ونقل عن أبي بكر بن العـربي الامـام المـالكي : أن جميع ما ورد في هذه القصة لا أصل له ، قال القاضي : والذي ورد في الصـحيح « أن النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم قـرأ (والنجم) وهو بمكة فسـجد معه المسـلمون والمشـركون والجن والانس » ثم قـال : وقد قـامت الحجة وأجمعت الأمة على عصـمته صـلّى اللّه عليه وسـلّم ونزاهته عن هـذه الرذيلة ، أما من تمنيه أن يـنزل عليه مثل هـذا من مدح آلهة غير اللّه ، وهو كفر ، أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلّى اللّه عليه وسـلّم أن من القـرآن ما ليس منه حـتى يفهمه جبريـل. وذلك كله ممتنع في حقه صلّى اللّه عليه وسلّم أو يقـول النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم ذلك من قبل نفسه عمدا ـ وذلك كفر ـ أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته صلّى اللّه عليه وسلّم من جريـان الكفر على لسـانه أو قلبه لا عمـدا ولا سـهوا أو أن يشـبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان أو يكون للشـيطان عليه سـبيل أو أن يتقـول على الله ما لم ينزل لا عمدا ولا سهوا.

1 ـ سورة الحاقة آية 44.

2 ـ سورة يونس آية 15.

كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً) [1].
(الرابع) (**كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ**) [2].
(الخامس) قوله (**سَنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسىٰ**) [3].
وإذا ثبت ما ذكرناه فلنشرع في الجواب عن الشبهة فنقول :
التمني : جاء في اللغة لأمرين : (أحدهما) تمني القلب ، (والثاني) التلاوة قال اللّه تعالى (**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاٰ يَعْلَمُونَ اَلْكِتٰابَ إِلاّٰ أَمٰانِيَّ**) [4] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة وقال حسان [5]

تمنى كتاب اللّه أوّل ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل : إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلي به ، وقيل : أخذ من التقدير لأن التالي مقدر للحروف يذكرها شيئا فشيئا والتمني التقدير ، منى اللّه خيرا أي قدره.
إذا عرف ذلك فنقول : من المفسرين من حمل الآية على تمني القلب ، والمعنى أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم متى تمنى بقلبه بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ، ثم إن اللّه تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويأتيه بما يرشده إلى ترك الالتفات إلى وسوسته.
وهذا ضعيف لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر بباله صلّى اللّه عليه وسلّم فتنة للكفار ، وذلك يبطله قوله تعالى (**لِيَجْعَلَ مٰا يُلْقِي اَلشَّيْطٰانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**) [6] الآية : فثبت أن المراد بالتمني القراءة.

1 ـ سورة الاسراء آية 73 ـ 74.
2 ـ سورة الفرقان آية 32.
3 ـ سورة الاعلى آية 6.
4 ـ سورة البقرة آية 78.
5 ـ قال ذلك في رثاء عثمان بن عفان حين قتل مظلوما رضي اللّه عنه.
6 ـ سورة الحج آية 53.

ثم اختلف الــذاهبون إلى هــذا التأويل على وجوه ستة :

(الأول) أن النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم لم يتكلم بــذلك ولا تكلم الشــيطان به أيضا ، ولكنه عليه الصــلاة والسلام لما قرأ سورة (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) اشـتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظ ما قــرأه « تلك الغرانيق العلى وإن شـــفاعتهن لـــترتجى » وذلك على حسب ما جرت العادة من توهم بعض الكلمات على غـير ما يقـال ، وهذا فاسد لوجوه ثلاثة :

(الأول) أن التـوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد جـرت العـادة بسـماعه ، فأما غـير المسـموع فلا يقع فيه ذلك.

(الثاني) أنه لو كان كـذلك لوقع هـذا التـوهم لبعض السـامعين دون البعض ، فــإن العــادة مانعة من اتفــاق الجمع العظيم في الساعة الواحـدة على خيـال فاسد في المحسوسات.

(الثـالث) لو كـان كـذلك لم يكن ذلك مضـافا إلى الشيطان.

(الوجه الثاني) أن يكون عليه الصلاة والسـلام تكلم بذلك إما عامدا أو ساهيا. أما العمد فغير جائز. لأنه تخليط في الوحي. وذلك يوجب زوال الثقة عن كل ما جاء به.

(فإن قلت) لعله قد ذكر ذلك استفهاما على سـبيل الإنكار؟

(قلت) هب أنه كـذلك لكن قراءته في أثنـاء قـراءة القرآن مع كونه على ذلك الـوزن تـوهم كونه منه ، فيعـود المحذور المذكور. أما السهو فغـير جـائز أيضا لأنه لو جـاز وقــوع السـهو هاهنا لجــاز في غــيره وحينئذ ترتفع الثقة بالشرع. ولأن الساهي لا يجـوز أن يقع مثل هـذه الألفـاظ مطابقة لـوزن هـذه السـورة وطريقتها ومعناهـا. فإنا نعلم بالضـرورة أن واحـدا لو أنشد قصـيدة لما جـاز أن يسـهو حتى يتفق فيه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها.

(الثالث) أن يكون الشيطان أجـبر النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم على التكلم وهـذا أيضا فاسد لوجـوه ثلاثة : (الأول) أن الشيطان لو قدر على ذلك لـوجب القيـاس أن يزل الشـيطان ولجـاز في أكـثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشيطان (الثاني) أن الشيطان لو تمكن من إجبـار النـبي عليه الصـلاة والسـلام على ذلك لارتفع الإيمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال.

(الثالث) قوله تعالى حاكيا عن الشيطان (**وَمٰا كٰـانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَـوْتُكُمْ**) الآية [1] وقـال تعالى (**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا**) الآيتان [2]. وقال (**إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ**) [3] فاعترف بأنه لا ســبيل له عليهم. (الرابع) أن يكــون ذلك الكلام كلام الشيطان وذلك بـأن يلفظ بكلام من تلقـاء نفسه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسـموع منه عليه السـلام وهو غـير ممتنع لأنه لا خلاف أن الجن والشــياطين متكلمــون فلا يمتنع أن يســمع الشيطان من غـير أن يـرى صـورته فـإذا سـمع كلامه في أثنــاء كلام آخر لم يبعد أن يظن الســامعون كــون ذينك الكلامين من ذلك الشخص المبصر ثم هـذا لا يكـون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا للنبي.

ولقائل أن يقول : إذا جـوزتم أن يتكلم الشـيطان في أثناء كلام الرسـول عليه الصـلاة والسـلام بما يشـتبه على كل السامعين حـتى يظنـوه كلاما لرسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وســلّم بقي هــذا الاحتمــال في كل ما يتكلم به الرسول عليه الصلاة والسلام فتفضي إلى ارتفاع الوثــوق عن كل الشرع.

(الجـواب) : أن ذلك الاحتمـال قـائم ، ولكنه لو وقع لوجب

---

1 ـ سورة ابراهيم آية 22.
2 ـ سورة النحل آية 99.
3 ـ سورة الحجر آية 40.

في حكمة اللّه تعـالى أن يشـرح الحـال فيه كما في هـذه الواقعة إزالة للتلبيس.

(الخـامس) : أن المتكلم بـذلك بعض الكفـرة ، فإنه عليه الصـلاة والسـلام لما انتهى من قـراءة هـذه السـورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها ، فقـــال بعض من حضر من الكفـــار : « تلك الغرانيق العلى » فاشـــتبه على القـــوم ، لأنهم كـــانوا يلغطـــون عند قراءته ويكـــثرون من الكلام طلبا لتغليطه وإخفـاء قراءتـه. وممكن أن يكـون أيضا في الصـلاة لأنهم كـانوا يقربـون منه في حـال الصـلاة ويسـمعون قراءته ويلغون فيها ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام كـان إذا تلا القـرآن على قـريش توقف في فصـول الآيـات ، فـألقى بعض الحاضـرين ذلك الكلام في تلك الواقعـات فتـوهم القوم أنه من قراءته عليه الصلاة والسـلام ثم أضـاف اللّه ذلك إلى الشـيطان لأنه بوسوســته حصل ، أو لأنه جعل ذلك المتكلم شيطانا.

(السادس) : أن المراد بـالغرانيق الملائكة وقد كـان ذلك قرآنا مـــنزلا في وصف الملائكة ، فلما تـــوهم المشركون [1] أنه يريد آلهتهم نسخ اللّه تلاوته.

---

1 ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القـرآن (ج 2 ص 168) قد بينا في السـالف من كتابنا هـذا وفي غـير موضع عصـمة الأنبيـاء صلوات اللّه عليهم من الذنوب وحققنا القول فيما نسب إليهم من ذلك وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا : ان أحدا لا ينبغي أن يـذكر الأنبيـاء الا بما ذكـره اللّه لا يزيد عليـه. فـان أخبـارهم مروية وأحـاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد رجلين : أما غبي عن مقـدارهم ، واما بـدعى لا رأى له في برهم ووقارهم فيدس تحت المقال المطلق الدواهي ولا يـراعى الادلة ولا النواهي ـ الى أن قال : وهذه الروايات كلها ساقطة الاسانيد. انما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت : « لو كان رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلّم كانما من الـوحي شـيئا لكتم هـذه الآية (**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اَللّهُ عَلَيْهِ**) يعني بالاسـلام (**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ**) يعـني بالعتق (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاِتَّقِ اَللّهَ

الشبهة الثانية

تمسكوا بقوله تعالى : (**وَإِذْ تَقُـولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اَللّـهُ عَلَيْـهِ**) الآية [1] روي أنه عليه الصـلاة والسـلام رأى زينب بنت جحش بعد ما زوجها من زيد فهويها. فلما حضر زيد لطلاقها أخفى في نفسه عزمه على نكاحها بعــده لهــواه لها فعاتبه عليه بقوله (**وَتُخْفِي فِي نَفْسِــكَ مَا اَللّـــهُ مُبْدِيهِ**) الآية [2].

(الجواب) : من أربعة وجوه :

(أحدها) : الذي يدل عليه أنه لم يصدر من الرســول في هذه الواقعة مذمة ، ولا عاتبه اللّه على شيء منه؛ ولا ذكر أنه عصى وأخطأ. ولا ذكر استغفار النبي منه ، ولا أنه اعترف على نفسه مخطئا وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك شــيء كما في ســائر الأنبيــاء عليهم الســلام مــتى صدرت عنهم زلة أو ترك مندوب وجد منه ما ذكرناه.

(وثانيهــا) : أنه ذكر في القصة أنه ليس على النــبي من حرج فيما فرض اللّه له ، وهـذا تصـريح بأنه لم يصـدر منه ذنب البتة.

وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ـ الى قوله : وكـان أمر الله مفعـولا) وأن رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسلّم لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه. فأنزل الله (**مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ**) الآية ، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تبنـاه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل اللّه تعالى (**اُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اَللّـهِ**) الآية فلان مـولى فلان وأخو فلان (**هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اَللّـهِ**) يعـني أنه أعـدل عند الله تعـالى » قـال القاضي : وما رواه هذه الرواية غير معتبر

1 ـ وهذا من أبعد القـول وأحقه بـالرد. اذ كيف يكـون في حق الملائكة وهو يشير الى اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى؟ فقائل هـذا لم يفكر حين قاله.

2 ـ سورة الاحزاب الآية 37.

(وثالثها) : أنه تعالى إنما زوجه إياها كيلا يكـون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطـرا ، ولم يقل : إني فعلت ذلك لأجل عشقك.

(ورابعها) : قوله تعالي (**زَوَّجْنٰاكَهٰا**) ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحا في اللّه تعـالى. فثبت بهـذه الوجـوه أنه لم يصدر منه ذنب البتة في الواقعة.

بقي قوله تعالى (**وَتَخْشَى اَلنّـاسَ وَاَللّـهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ**) [1] فنقول : ذكر المحققون فيه وجوها أربعة :

(الأول) : أن اللّه تعــالى لما أراد نسخ ما كــان في الجاهلية من تحـريم أزواج الأدعيـاء أوحى اللّه أن زيـدا ــ وهو دعى رســول اللّه صــلّى اللّه عليه وســلّم ــ يطلق زوجته فــتزوج أنت بهــا. فلما حضر زيد ليطلقها أشــفق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسـلّم من أنه لو طلقها للزمه التزوج بها فيصـير بـذلك سـببا لسـوء كلام المنـافقين فيه فقــال له (**أَمْسِــكْ عَلَيْـكَ زَوْجَـكَ**) [2] وأخفى في نفسه عزمه على نكاحها بعد طلاقه إياها وهـــــــــذا التأويل هو المطــابق لقوله تعـالي (**فَلَمّا قَضـىٰ زَيْـدٌ مِنْهٰا وَطَـراً زَوَّجْنٰاكَهٰا**) [3] فثبت أن العلة في أمره بنكاحها ما ذكرناه من نسخ السنة المتقدمة.

(الثاني) أن زيــدا لما خاصم زوجته زينب ، وهي ابنه عمة النـبي عليه الصـلاة والسـلام وأشـرف على طلاقها ، أخبر النبي صلّى اللّه عليه وسـلّم أنه طلقها زيد تزوجها 4 من حيث إنها كــانت ابنة عمته ، وكــان يحب ضــمها إلى نفسه ، كما يحب أحــدنا ضم قراباته إليه حــتى لا ينــالهم ضرر ، إلا

---

1 ـ سورة الاحزاب الآية 37.
2 ـ سورة الاحزاب الآية 37.
3 ـ سورة الاحزاب الآية 37.
4 ـ العبارة مضطربة ولعل فيها نقصا.

أنه لم يظهر ذلك خوفا من ألسنة المنافقين فاللّه تعالى عاتبه في التفات قلبه إلى الناس فقال (**وَتَخْشَى اَلنَّاسَ وَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**) [1].

(الثالث) أن زيدا لما نكح زينب وجدها ذات جمال وعفة وقوة وعقل وحسن خدمة فبدا له أن ينزل عنها لينكحها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ولما رآها صالحة لصحبته خدمة له منه وقربة إلى اللّه تعالى بإيثار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على نفسه في حظ مباح. فجاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وعرض عليه الأمر ولم يكن ذلك منكرا عنده عليه الصلاة والسلام غير أن زيدا تبناه النبي عليه الصلاة والسلام وكان التزوج بامرأته محرما في الجاهلية ، فعلم أنه لو نكحها أطالوا ألسنتهم فيه وكانوا على قرب عهد من الإسلام يحترزون عن مثل هذه الأمور ، فامتنع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن نكاحها وقال له (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**) مع ما في قلبه من الرضا حذرا عما ذكرناه فنزلت هذه الآية (**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اَللَّهُ مُبْدِيهِ**) يعني من إضمار الرضى (وَتَخْشَى اَلنَّاسَ) يعني تستحي منهم أن يقولوا نكح زوجة ابنه (**وَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**) في إظهار أمر غير ما تضمره.

(الرابع) أن زينب طمعت في أول أمرها أن يتزوج بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فلما خطبها الرسول لزيد شق ذلك عليها وعلى أخيها وأمها ،

---

1 ـ فاخبر الله تعالى رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم والناس بما كان يضمره من ايثار ضمها الى نفسه ليكون ظاهر الأنبياء عليهم السلام وباطنهم سواء ، ولهذا قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم للانصار يوم فتح مكة وقد جاء عثمان بعبد الله بن سعد بن أبي سرح وسأله أن يرضى عنه وكان رسول الله صلى اللّه عليه وسلم قبل ذلك أهدر دمه وأمر بقتله فلما رأى عثمان أستحي من رده وسكت طويلا ليقتله بعض المؤمنين فلم يفعل المؤمنون ذلك انتظارا منهم لامر رسول الله صلى اللّه عليه وسلم فقال للانصار : أما كان فيكم رجل يقوم إليه فيقتله فقال له عباد بن بشر يا رسول الله أن عيني في عينك انتظارا أن تؤمئ الي فأقتله فقال له رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : الأنبياء لا تكون لهم خيانة أعين والله أعلم.

حتى نزل قوله تعالى (**مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاٰ مُؤْمِنَةٍ**) الآية [1] فعند ذلك انقـادوا كرها ، فلما بـنى بها زيد لم تسـاعده ونشزت عنه لاستحكام طمعها في رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وسلّم واستحقارها زيـدا ، فشـكاها إلى النـبي صـلّى اللّه عليه وسلّم فقال (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَـكَ) وأخفى في نفسه استحكام طمعها فيه ، لأنه عليه الصلاة والسـلام لو ذكر ذلك لزيد لتنغصت عليه تلك النعمة ، ولقـــــــــال المنافقون إنه إنما قال ذلك طمعا في تلك المرأة.

فهذه وجوه سوى ما ذكـره الطـاعنون في أنبيـاء اللّه تعالى ورسله وكلها محتمل.

(فإن قلت) هب أن الأمر كـذلك ، ولكن قوله تعـالى : (**وَتَخْشَى اَلنّاسَ وَاَللّهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشٰـاهُ**) يـدل على أن ذلك الإخفاء ما كان جائزا له.

(قلت) أكثر ما فيه أنه أخفى ذلك اتقـاء لسـوء كلام المنافقين ولو أنه أظهره وتحمل سوء مقالتهم لكان أكـثر ثوابا فيه ، فيرجع حاصله إلى تـرك الأولى والأفضل فليس ذلك من الـذنب في شـيء ، فأما الـذين يـذكرون من أنه عشقها فهو من بـاب الآحـاد والأولى تنزيه منصب الأنبيـاء عن مثله لا سـيما والقــرآن لا يــدل عليه البتــة. ثم على تقـدير الصـحة ففيها روايتـان : منهم من يقـول بأنه عليه الصلاة والسلام لما رآها وعشقها حرمت على زيـد. وهـذا قطعا غـير صـحيح لأنه لو كـان كـذلك لكـان أمـره لزيد بإمساكها أمرا بالزنا ولكان وصـفه إياها بكونها زوجه كـذبا وهــذان الأمــران لا يليقــان بالمســلمين فضلا عن أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومنهم من لا يقول بحرمتها على زوجهــا. ولكن يقــول يجب على الــزوج تطليقها والنزول عنها ، وقالوا : والمعنى فيه امتحانا للزوج

1 ـ سورة الأحزاب آية 36.

في إيمانه بتكليف الـــــنزول عن زوجته طلبا لرضى اللّه تعـالى ورضي رسـوله صـلّى اللّه عليه وسـلّم. وفيه أيضا ابتلاء النــبي عليه الصــلاة والســلام وتكليفه الحــذر عن الأعين لأن حفظ النظر أشق على النفس فقيل له إن لم تحفظ نظرك فربما أبصـرت شـيئا فاشـتهيته لأن الشـهوة ليست مقــدورة للبشــر. وإذا اشــتهيته وجب على الــزوج طلاقها والــنزول عنها فــإن أخبرته بــذلك تعرضت لســوء المقالة وإن كتمته صـــــرت خائنا في الــــوحي ، فلأجل الاحتراز عن هذه التوابع كان النبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم يبـالغ في حفظ النظر وذلك من أشق التكـاليف. فهـذا ما قيل في هذا الباب.

الشبهة الرابعة

تمسكوا بقوله تعالى : (**مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَسْـرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي اَلْأَرْضِ**) الآيتـان [1]. والاسـتدلال من ثلاثة أوجه :

(الأول) قوله تعالى : (**مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَسْرىٰ**) وذلك يقتضي أن يكون استبقاء الأسرى محرما.

(الثــاني) قوله : (**تُرِيــدُونَ عَــرَضَ اَلــدُّنْيٰا**) وذلك مذكور في معرض الذم.

(الثالث) قوله تعالى : (**لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اَللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ**) [1].

(الجواب) الذي يـدل على بـراءة منصب الأنبيـاء في هذه الواقعة عن كل ما لا ينبغي وجوه :

---

1 ـ سورة الانفال آية 67 ـ 68.
2 ـ سورة الانفال آية 68.

(الأول) أنه إما أن يكـــون قد أوحى له في جـــواز الأسر وخطر إليه شــيء ، أو ما أوحى إليه شــيء ، فـإن كــان قد أوحى إليه شــيء لم يجز للنــبي عليه الصــلاة والســلام أن يستشــير أصـحابه فيه لأن مع قيــام النص وظهور الوحي لا يجوز الاشتغال بالاستشارة ، وإن لم يوح إليه شيء البتة لم يتوجه عليه ذنب البتة.

(الثاني) أن ذلك الحكم لو كان خطأ لأمر اللّه تعالى بنقضه ، فكان يؤمر بقتل الأسرى ويرد ما أخذ منهم ، قلنا : لما لم يكن كـذلك بل قـال (**فَكُلُـوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً**) [1] علمنا أنه لم يوجد الخطأ في ذلك الحكم البتة.

(الثــالث) أنه عليه الصــلاة والســلام لم يشــتغل بالاستغفار واللـوم ، وذلك يـدل على عـدم الـذنب على ما تقدم. وإذ قد بينا ذلك فنقول : كما يأتي العتاب على تـرك الــواجب فقد يــأتي أيضا على تــرك الأولى ، والأولى في ذلك الوقت الاثخان وتـرك الفـداء قطعا للاطمـاع وحسـما للــنزاع ولو لا أن ذلك من بــاب الأولى لما فــوض النــبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذلك إلى الأصـحاب وهـذا هو العـذر عن قوله (**مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ**) فأما قوله (**تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيٰا**) فهو خطـاب جمع فيصـرف ذلك إلى القــوم الـذين رغبـوا في المـال [2] وأما قوله (**لَـوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اَللّٰهِ**) فمعناه لو لا ما سـبق من تحليل الغنـائم لعذبتكم بسبب أخذكم هذا الفداء [3] ،

---

1 ـ سورة الانفال آية 69.

2 ـ وهذا يدل على أن المعاتب في شأن الاسارى هو غـير النـبي صـلّى اللّه عليه وســلّم بل يجب أن يكــون ســواه والقصة معروفة لان الله تعالى أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يأمر أصـحابه بـأن يثخنـوا في قتل أعدائهم بقوله تعالى : (**فَاضْرِبُوا فَوْقَ اَلْأَعْنٰـاقِ وَاِضْـرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ**) وبلغ النبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم ذلك الى أصـحابه فسـهوا عن ذلك وأسروا يوم بدر جماعة من المشركين طمعا في الفداء فأنكر الله تعالى ذلك عليهم وبين أن الذي أمر به سواه.

3 ـ روى المؤلف في تفسـيره 4 /ـ 399 ان أبا بكر قـال : الاولى ان تأخذ الغداء لتقوى العسكر به على الجهاد.

وهــذا غاية التقريع في تخطئتهم في أخذ الفــداء من جهة التدبير.

(فإن قلت) فإن كان ذلك محللا لهم فما هـذا التقريع البالغ؟ (قلت) لأن ذلك من بـاب الحـروب ، وما كـان من ذلك الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ويقرع ذلك المخطئ ، وإن كان غير مذنب.

الشبهة الخامسة

أنه لما استأذنه قوم في التخلف عن الخروج معه إلى الجهاد فـأذن لهم فقـال اللّه تعـالى (**عَفَا اَللّـهُ عَنْـكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**) [1] والعفو لا يكون إلا بعد الـذنب ، فـدل على أنه كان مذنبا.

(الجواب) أن العفو يقتضي ترك المؤاخــذة ، وقوله (**لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**) مؤاخـــذة. فلو أجرينا قوله تعــالى (**عَفَا اَللّـهُ عَنْـكَ**) على ظـاهره لـزمت المناقضـة. فعلمنا أنه ليس المراد ذلك ـ ما جوابك عن كلامي ـ مثلا إنما المــراد التلطف في المخاطبـة. كما يقـال : أنت رحمك اللّه وغفر لك ، وإن لم يكن هنـاك ذنب البتة ، وأيضا فهـذا من بـاب التدبير في الحرب. وقد بينا أن تارك الأفضل فيه قد يقرع ويوبخ [2].

الشبهة السادسة

قوله تعالى (**وَوَضَـعْنٰا عَنْـكَ وِزْرَكَ**) الآية [3] صـريح في الذنب (جوابه) من وجوه :

---

1 ـ سورة التوبة آية 43.

2 ـ ليس هناك من داع للتهرب من اثبات الـذنب الـذي اثبته إليه تعـالى بقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » طالما أن المدلول واضح فيها.

3 ـ سورة الشرح آية 2.

(الأول) حمله على الوزر الذي كان قبل النبوة.

(الثاني) حمله على الصغيرة أو ترك الأولى.

(الثالث) أن الوزر في أصل اللغة هو الثقل. قال اللّه تعالى (**حَتّى تَضَعَ اَلْحَرْبُ أَوْزارَها**) [1] أي أثقالها ، وإنما سمى الذنب بالوزر لأنه يثقل كاسبه. فعلى هذا تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان في غم شديد لإصرار قومه على الشرك ، وأنه كان هو وأصحابه فيما بينهم مستضعفين فلما أعلا اللّه كلمته ، وعظم أمره فقد وضع وزره ، ويقوى هذا التأويل قوله (**وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ اَلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ اَلْعُسْرِ يُسْراً**) [2] فإن العسر بالشدائد والغموم أشبه واليسر بإزالة الهموم أشبه.

(فإن قلت) إن هذه السورة مكية فما ذكرت من المعنى لا يليق بها.

(قلت) إن وعد اللّه حق ، فلما وعده اللّه بذلك في مكة فقد قوي قلبه وزالت كربته.

الشبهة السابعة

تمسكوا بقوله تعالى (**لِيَغْفِرَ لَكَ اَللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**) [3] قالوا : وهذا تصريح بالمغفرة.

---

1 ـ سورة محمد آية 4.

2 ـ سورة الشرح آية 4 ـ 6.

3 ـ سورة الفتح آية 2.

(جوابه) أنا نحمله على ما قبل النبـــــــوة أو على الصغائر. ولمن أباهما تأويلات.

(الأول) أن المراد ما تقدم من ذنب أمتك وما تأخر ، فإن الـرجلى المعتـبر إذا أحسن بعض خدمه أو أسـاء فإنه يقـــال له : أنت فعلت ذلك وإن لم يكن هو فاعله بنفسه البتة.

(الثاني) إذا تـرك الأولى قد يسـمى ذنبا كما يقـال : حسنات الأبرار سيئات المقربين.

(الثـالث) أن الـذنب مصـدر ، ويجـوز إضـافته إلى الفاعل والمفعول ، فكان المـراد ليغفر لأجلك وببركتك ما تقدم من ذنبهم في حقك وما تأخر.

(الرابع) أن الغــــرض من هـــــذه الآية علو درجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك يحصل بقوله تعـالى : لو كـان لك ذنب لغفرته لك ، وإخـراج القضـية الجازمة إلى الشرطية جائز إذا دل سياق الكلام عليه [1].

(الخامس) وهو أنه عليه الصلاة والسـلام لا شك أنه بتقدير الإقدام على الذنب كان يتـوب عنه ، فـإن الإصـرار على الذنب منفي عنه بالإجماع والتائب من الذنب كمن لا ذنب لـه. وإذا كـان كـذلك وجب علينا وعليهم تأويل هـذه الآية.

---

1 ـ لا نرى ضرورة لهذه التأويلات وقد روى أحمد في حديث عائشة انها قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم عند ما كان يصلي حتى تتورم قـدماه : أليس قد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تـأخر؟ فلم يفكر رسـول اللّه صـلى اللّه عليه وسـلم ذلك بل قـال : أفلا أكـون عبـدا شـكورا. فتأمل.

الشبهة الثامنة

تمســكوا بقوله تعــالى (**عَبَسَ وَتَــوَلّى أَنْ جٰــاءَهُ اَلْأَعْمىٰ**) [1] فعاتبه على إعراضه عن ابن أم مكتوم.

(جوابه) لا نسلم أن هذا الخطـاب متوجه إلى النـبي عليه الصلاة والسـلام. لا يقـال : إن أهل التفسـير قـالوا : الخطـاب مع الرسـول ، لأنا نقـول : هـذه رواية الآحـاد فلا تقبل في هذه المسألة ثم إنها معارضة بأمور :

(الأول) أنه وصفه بـالعبوس وليس هـذا من صـفات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قرآن ولا خـبر مع الأعـداء والمعاندين فضلا عن المؤمنين والمسترشدين.

(الثــاني) وصــفه بأنه تصــدى للأغنيــاء وتلهى عن الفقراء وذلك غير لائق بأخلاقه.

(الثالث) أنه لا يجوز أن يقال للنبي (**وَمٰا عَلَيْـكَ أَلاّ يَزَّكّى**) [2] فـإن هـذا الإغـراء يـترك الحـرص على إيمـان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه.

سلمنا أن الخطـاب مع النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم لكن لا نسلم كونه ذنبا ، بيانه أنه تعـالى وصف نبيه بحسن الخلق ، (**وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [3].

---

1 ـ سورة عبس آية 1 ـ 2.
2 ـ سورة عبس آية 7.
3 ـ سورة القلم آية 4.

(**وَلَــوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيــظَ اَلْقَلْبِ لاَنْفَضُّــوا مِنْ حَوْلِكَ**) [1] (**وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ**) [2] فلما ظهر منه في بعض الأوقـــات النـــادرة خلافه عاتبه عليه وعرفه أن ذلك غير مرضي منه فيكون ذلك من باب تـرك الأولى ثم السبب في ذلك كما جـاء في الخـبر « أنه كـان يتكلم مع بعض أشــراف قــريش ويســتميله إلى الإســلام رجـــاء أن يعز به الإســلام وقد كــان من الحـــرص على إسلامهم بحيث قال اللّه تعالى : ـ (**فَلَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلىٰ آثٰـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهٰـذَا اَلْحَـدِيثِ أَسَـفاً**) [3] فحضره هذا الأعمى ولم يعرف كيفية الحـال ، فسـأل عن مسألة في خلال مكالمة النبي عليه الصـلاة والسـلام ذلك الرجل ، فاشــــتد ذلك عليه إذ كــــان ذلك قطعا للكلام وإفسادا لما كـان يحاوله من إسـلام ذلك الرجـل فـأعرض عنه فنهاه اللّه تعـالى عن ذلك ، وأمـره بالإقبـال على كل من أتـاه من شـريف ووضـيع وغـني وفقـير بـأن لا يخص بدعوته شـــريفا دون دني إذ الــواجب عليه هو التبليغ إلى الكل وليس عليه من امتنـــاع من امتنع عن قبـــول دعوته تبعة ولا عهدة.

الشبهة التاسعة

قوله تعـــالى : (**وَلاٰ تَطْــرُدِ اَلَّذِينَ يَــدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَــدٰاةِ وَاَلْعَشِــيِّ يُرِيــدُونَ وَجْهَـهُ**) [4] أي لا تطـــرد المؤمنين وطردهم كبيرة.

(جوابــه) ليس في الظــاهر طـــردهم وإنما فيه النهي عن طـــــردهم بل فيه الدلالة على أنه قـــال تعـــالى : (**فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ اَلظّٰالِمِينَ**) [5].

1 ـ سورة آل عمران آية 159.
2 ـ سورة الأنبياء آية 107.
3 ـ سورة الكهف آية 6.
4 ـ سورة الانعام آية 52.
5 ـ سورة الانعام آية 52.

ولو كـان طـردهم لقـال فطـردتهم [1]. وحكمة النهي أن جمعا من الكفـار طلبـوا منه طـرد الفقـراء ، فـأنزل اللّه تعالى هذه الآية لتكون حجة له عليه الصـلاة والسـلام عن قبول قولهم.

الشبهة العاشرة

قوله تعـالى : (**لَقَـدْ تٰـابَ اَللّٰـهُ عَلَى اَلنَّبِيِّ**) [2] والتوبة لا بد أن تكون مسبوقة بذنب.

(جوابه) التوبة ـ الرجوع ـ محمولة على الصـغيرة أو ترك الأولى.

الشبهة الحادية عشرة

قوله تعالى : (**وَاِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**) [3] وفي الحديث « وإني لأسـتغفر اللّه في اليـوم والليلة سـبعين مـرة » [4] وهذا صريح.

(جوابه) أنه محمـول إما على الصـغيرة أو تـرك الأولى أو التواضع كما قررناه في قـول آدم (**رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا**) [5] أو على التقدير والمعنى إذا أذنبت فاستغفره كقوله تعـالى : (**يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَى اَللّٰـهِ تَوْبَـةً نَصُـوحاً**) [6] وليس يريد أن جميعهم مـذنبون ، وإنما بعثهم على التوبة إذا أذنبوا.

---

1 ـ قال المصنف في تفسيره 4 /ـ 51 (انه عليه السلام ما طـردهم لاجل الاسـتخفاف بهم وانما عين لجلوسـهم وقتا معينا سـوى الـوقت الـذي كـان يحضر فيه أكـابر قـريش) وهـذا يفيد عكس ما قاله هنا لانه أثبت الطرد هناك وعلله بانه اجتهاد وانه من باب تـرك الافضل والاكمل والاولى.

2 ـ سورة التوبة آية 117.

3 ـ سورة غافر آية 55.

4 ـ رواه البخاري والترمذي وابن ماجه وابن حنبل مع اختلاف بينهم في اللفظ.

5 ـ سورة الاعراف آية 23.

6 ـ سورة التحريم آية 8.

الشبهة الثانية عشرة

قوله تعالى : (**يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اَللّٰـهُ لَكَ**) الآية [1] ظاهرها مشعر بأنه فعل ما لا يجوز.

(جوابه) : أن تحـريم ما أحل اللّه ليس بـذنب بـدليل الطلاق والعتـاق ، وأما العتـاب فـإن النهي عن فعل ذلك لابتغـاء مرضـاة النسـاء أو ليكـون زجـرا لهن عن مطالبته مثل ذلك كما يقـــول القائل لغـــيره : لم قبلت أمر فلان واقتديت به وهو دونك ، وآثرت رضـاه وهو عبـدك ، فليس هذا عتاب ذنب وإنما هو عتاب تشريف *

الشبهة الثالثة عشرة

قوله تعالى : (**يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ اِتَّقِ اَللّٰهَ**) [2] (**يٰا أَيُّهَا اَلرَّسُـولُ بَلِّغْ مٰا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰـالَتَهُ**) [3] فلو لم يوجد منه فعل المحظــور والإخلال بالواجب لم يكن للأمر والنهي فائدة.

(جوابه) الأمر والنهي أحد أســـــباب العصـــــمة فوجودهما لا يخل بها.

الشبهة الرابعة عشرة

قوله تعـــالى : (**لَئِنْ أَشْـــرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـــكَ وَلَتَكُـونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِـرِينَ**) [4] فلو لم يصح ذلك منه لما خوطب به.

---

1 ـ سورة التحريم آية 1.
2 ـ سورة الأحزاب آية 1.
3 ـ سورة المائدة آية 67.
4 ـ سورة الزمر آية 65.

(جوابه) من وجوه :
(الأول) أن المـــراد أمته فقد روي عن ابن عبـــاس رضي اللّه عنهما أنه قـال : « نـزل القـرآن بإيـاك أعـني واسمعي يا جارة » ومثله قوله تعالى :
(**يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ**) الآية [1]. فقوله : (**فَطَلِّقُوهُنَّ**) يدل على أن الخطاب توجه إلى غيره.
(الثـــاني) حمله على الشـــرك الخفي الـــذي هو الالتفات إلى غير اللّه تعالى.
(الثـالث) أنه شـرح الحـال بتقـدير الوقـوع كما في قوله تعالى : (**لَوْ كٰانَ فِيهِمٰا آلِهَةٌ إِلاَّ اَللّٰـهُ لَفَسَـدَتٰا**) [2].

الشبهة الخامسة عشرة

قوله تعـالى : (**سَـنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسـىٰ إِلاّٰ مٰا شٰـاءَ اَللّٰهُ**) [3] والاستثناء يدل على جواز النسيان في الوحي.
(جوابه) إن النسـيان يجيء بمعـنى الـترك قـال اللّه تعالى : (**فَالْيَوْمَ نَنْسٰاهُمْ كَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ يَوْمِهِمْ هٰذٰا**) [4] (**كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا وَكَذٰلِكَ اَلْيَوْمَ تُنْسىٰ**) [5] فقوله : (**سَـنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسـىٰ**) أي فلا تـترك منها شيئا إلا ما شاء اللّه وهو المندوب أو المنسوخ.

---
1 ـ سورة الطلاق آية 1.
2 ـ سورة الأنبياء آية 22.
3 ـ سورة الاعلى آية 6.
4 ـ سورة الأعراف آية 51.
5 ـ سورة طه آية 126.

الشبهة السادسة عشرة

(فَـإِنْ كُنْتَ فِي شَـكٍّ مِمّا أَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ فَسْـئَلِ اَلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ اَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَـاءَكَ اَلْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُـونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَـرِينَ) [1] قـالوا فكـان النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم في شك مما أوحى اللّه إليه ، وإلا فأي فائدة في أمره بالسؤال.

(جوابه) القضية الشرطية لا تفيد إلا ترتيب الجــواب على الشرط فأما أن الشرط حاصل أولا فهو غير مستفاد ، فأما الرجوع إلى اليهود والنصارى فلوجهين :

(الأول) أن نعت النـبي صـلّى اللّه عليه وسـلّم كـان مندوبا في كتبهم مذكورا في التوراة والإنجيل فكان يظهر بعضــهم ذلك وإن كتمه البــاقون ، وكــان ذلك من أعظم الدلائل على صدقه فأمره اللّه تعالى بـالرجوع وتعـرف ما شهدت به الكتب السماوية من نعته وصفته ، ليكون أقوى معين له في إزالة الشبهة وتقوية العلم.

(الثــاني) أن اللّه تعــالى أمــره أن يرجع إليهم في كيفية ثبوت نبوة سائر الأنبياء ، حتى يزول الوســواس في كونه نبيا لأنه أمر أن يــــأتي بمثل ما أتى به من قبله من المعجزات.

(جـــواب آخر) عن أصل الكلام ، وهو أن الخطـــاب وإن كان متوجها إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يجوز أن لا يكون المراد منه هو.

---

1 ـ سورة يونس آية 94.

الشبهة السابعة عشرة

قوله تعالى (**وَإِنْ كٰادُوا لَيَفْتِنُونَكَ**) الآيتان [1] قـالوا وكان معناه قارب فـدل ذلك على أنه عليه السـلام قـارب الكذب ومال إليه.

(جوابه) لعله قـارب ذلك بحسب الطبيعة البشـرية ، لا بحسب العقل والدين [2].

فصل آخر

فيما تمسكوا به في إثبات الذنب لا لنبي معين

الشبهة الاولى

قوله تعالى (**وَلَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰـهُ اَلنّٰـاسَ بِظُلْمِهِمْ**) [3] فهـذا يقتضي ثبـوت الظلم لكل النـاس والنـبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الناس فثبت الظلم له.

(جوابه) إذا تمسكت بهـذا العمـوم في إثبـات الظلم فقوله تعالى (**أَلاٰ لَعْنَةُ اَللّٰـهِ عَلَى اَلظّٰـالِمِينَ**) [4] يـوجب جـــواز اللعن عليهم وجل منصب الأنبيـــاء عنه فـــإن قلت بتخصيص العموم هناك قلت به هاهنا.

الشبهة الثانية

قوله تعـالى (**عٰـالِمُ اَلْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِـرُ عَلىٰ غَيْبِـهِ أَحَداً**) إلى آخر السورة [5] قالوا : فلو لا الخوف من وقوع تخليط الوحي من

---

1 ـ سورة الاسراء آية 73 ـ 75.

2 ـ وقد فصل المؤلف القـول في تفسـيره 5 / ـ 436 بـأن المقارنة لا تعني الوقوع ، كما أن كلمة لو لا تنفيد انتفاء الشـيء لثبـوت غـيره وان التهديد على المعصـية في « اذا لاذقنـاك » لا يـدل على الاقـدام عليها كما ورد في كثير من الآيات ، فلينظر.

3 ـ سورة النحل آية 61.

4 ـ سورة هود آية 18.

5 ـ سورة الجن آية 26.

جهة الأنبياء لم يكن في الاستظهار بالرصد المرسل معهم فائدة.

(جوابه) : يجــوز أن بعثة الملائكة مع الأنبيــاء ليس للخوف من تغيير الأنبياء وتبديلهم لكن لمنع الشـيطان من إيقــاع تخليط في أداء الرســول ، كما قررنــاه في قوله تعالى (**إِلاّ إِذٰا تَمَنّى أَلْقَى اَلشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**) [1].

الشبهة الثالثة

تمسكوا بقوله تعالى (**وَاُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اَلَّذِي آتَيْنٰـاهُ آيٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا**) [2] الآية وزعموا أنها نـزلت في نـبي عزل عن نبوته.

(جوابه) : ليس في الآية ما يـــدل على كـــون ذلك المـذكور نبيا والاعتمـاد فيه على اخبـار الآحـاد غـير جـائز. واللّه أعلم بالصواب.

(تمت الرسالة المسماة بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)

(للإمام فخر الدين الرازي عليه رحمة الباري)

---

1 ـ سورة الحج آية 52.
2 ـ سورة الاعراف آية 175.